الأستاذ الدكتور: عماد الدين خليل عمر

المرأة والأسرة المسلمة

مِن منظورٍ غربي





المرأة والأسرة المسلمة
من منظور غربـي

المرأة
والأسرة المسلمة
من منظور غربي

أ. د. عماد الدين خليل عمر



١٤٢٩- ٢٠٠٨
العراق — أربيل

اسم الكتاب: المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي
اسم المؤلف: أ. د. عماد الدين خليل عمر
النشر: مكتب التفسير للنشر والاعلان / اربيل
خط الغلاف: نوزاد كويى
الغلاف : أمين مخلص
الطبعة: الأولى ١٤٢٩ - ٢٠٠٨
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات العامة (١٥٥) سنة ٢٠٠٨

التفسير
للنشر والاعلان
اربيل - شارع المحاكم - تحت بناية فندق شيرين بالاص
ت: ٢٢٢١٦٩٥-٢٢٣٠٩٠٨-٢٥١٨١٣٨
موبايل:٠٧٥٠٤٦٠٥١٢٢- ٠٧٧٠١٣٨٧٢٩١
tafseeroffice@yahoo.com
altafseero@hotmail.com

I. A
4/12/12

بسم الله الرحمن الرحيم

قضايا من ملف المرأة

تعود "قضية" المرأة في العقدين الاخيرين لكي تحتل موقعا متقدما في ساحة الصراع الفكري، وتكون واحدة من اكثر المواضيع سخونة في العالم.

قبلها كان الغربيون هم الذين " يغزوننا " بافكارهم ومعطياتهم وتقاليدهم بخصوص المرأة والاسرة، وكل المفردات المرتبطة بهذين القطبين الاساسيين في الحياة الاجتماعية.. كنا نستورد وكانوا يصدرون.. وكانت تجارة رائدة ان يظهر في ديارنا مقاولون او متعهدون كبار يمارسون مهمة الاستيراد هذا بحساب الجملة.. وكانت الصفقات تتم دون معاينة جادة للبضاعة، فكانت تحمل وهي تتدفق على موانئنا الكثير من المزيف والمغشوش الذي سرعان ما انتشر في اسواقنا وملأها بالبضائع المدسوسة التي ضاعت في غبشها المرأة المسلمة وتعرضت الاسرة للاهتزاز والدمار بكل ماتنطوي عليه هذه المؤسسة من قيم تربوية تصنع مجد الامم والشعوب، او تقودها ال البوار.

كانت المرأة والاسرة هناك في ديار الغرب تعانيان من الف مشكلة ومشكلة فنقلت الينا كما لو كانت هي الحل، فكانت خسارتنا مضاعفة على كل المستويات وبكل المقاييس. استبدلنا الاعلى بالادنى، بمعيار معكوس كان يصور للمتعاملين على انه هو المقياس المطلوب والضروري في القرن العشرين.

وكانت تغذي المحاولة المعكوسة هذه، وتحرسها، وتمضي بها الى نهاية الشوط شبكة من السماسرة في عالم الفكر والاعلام والاجتماع، قد يختصمون على كل

شيء الا في هذه.. وكانت الاصوات "المعارضة " التي ترتفع لكي تدين السمسرة الماكرة، تكبت او تعزل، واحيانا يغيب اصحابها بهذه الحجة او تلك.

صوت الطهر والنظافة والاستقرار والامن والتوحد كاد يضيع قبالة اصوات المهرجين الذين اريد لهم ان يدخلوا المضمار وان يحظوا بالفوز باي ثمن.

كانوا يصدرون مشاكلهم عبر موانيء الفكر المفتوحة على مصراعيها، ومن خلال شبكة المستوردين والسماسرة، مخيلين للمسلمين ان المرأة المسلمة هي التي تعاني من المشاكل والازمات، وان الاسرة المسلمة بحاجة الى تعديل الوقفة الجانحة من اجل كرامة المرأة وحقها الانساني المشروع في الحياة الحرة الشريفة!! وبهدف تجاوز الهضم والاجحاف والتحقير التي عانت منها عبر القرون.

الاستقرار النفسي، والامن الاسري، والطهارة الخلقية، والطفولة الآمنة المتوحدة.. اصبحت مآخذ في الحياة الاسلامية، سعى السماسرة الى استيراد الحلول المناسبة لتداركها.. والحلول كانت سموما مركزة اطاحت بالاستقرار والامن والطهارة، ودست في شرايين الحياة الاسلامية: الفساد والعهر والشذوذ والتفكك والخوف والدمار.

****

ومنذ بدايات القرن الماضي حدثنا المتحدثون والكتاب عن حدث يحمل دلالاته العميقة في هذا المجال. لقد كانت (اسطنبول) عاصمة الخلافة الاسلامية واحدة من انظف مدن العالم في مجالات العلاقة بين الرجل والمرأة، فلما دخلها الغربيون تحت مظلة الاصلاح والتحديث.. لما غزتها قوانين (بونابرت) الوضعية وابعدت مفردات الشريعة الاسلامية شيئا فشيئا.. لما اخذ الطلبة الاتراك يذهبون الى عواصم الغرب ويرجعون بالشهادات او بدونها.. بدأ الطفح الاحمر يظهر على جلد (اسطنبول).. والزهري والسيلان وكل السموم الجنسية المدمرة تتسرب في شرايينها. ويذكر (شمتز دوملان) في كتابه (الاسلام) انه " عندما

(غادر الدكتور مافرو كور داتو) الاستانة سنة ١٩٢٧ م الى برلين لدراسة الطب لم يكن في العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة. كما لم يعرف فيها داء الزهري وهو السفلس المعروف في الشرق بالمرض الافرنكي، فلما عاد الدكتور بعد اربع سنين تبدلت الحال غير الحال. وفي ذلك يقول الصدر الاعظم (رشيد باشا) في حسرة موجعة: اننا نرسل ابناءنا الى اوربا ليتعلموا المدنية الافرنكية فيعودون الينا بمرض الداء الافرنكي ".

كانت الخطوة الاولى.. الخطوة الضرورية.. واعقبتها بقية الخطوات.. صار العملاق العثماني الذي دق ابواب فينا، رجلا مريضا، وراحت السكاكين تعمل في جسده الممزق، حتى انتهى الامر الى قتله تماما على يد واحد من المحسوبين على جغرافية الاسلام.. وجاء من بعده عشرات القادة لكي يواصلوا المهمة. ومن قبلهم، ومعهم، وربما بعدهم، استمرت شبكة السماسرة في دوائر الفكر والثقافة والاعلام والاجتماع تمارس مهمتها المعكوسة، فترفع شعار تحرير المرأة لكي تصل بها في نهاية الامر الى التعهير!

عدد ليس بالقليل من النساء الغربيات انفسهن، كما سنرى، كن يجدنْ في الحياة الاسلامية.. في جمال المراة والاسرة والطفولة المثل الاعلى والصيغة المرتجاة للامن والاستقرار والعطاء والسعادة.. وكن يتقن الى التمتع بعشر معشار ماتتمتع به المرأة المسلمة. واغلب الظن ان عددا من القراء والمتابعين لا يزالون يذكرون، من بين وقائع كثيرة، ذلك المؤتمر النسائي الحاشد الذي نظمته وزيرات المرأة والاسرة في الحكومات الالمانية الاقليمية عام ١٩٩١ م والذي كان بمثابة تظاهرة نسائية رسمية ضخمة استهدفت تأكيد دور المرأة في المجتمع الالماني، وقد طالبت النساء في المؤتمر بالحقوق التي تتمتع بها المرأة المسلمة منذ اكثر من الف واربعمائة عام، وخاصة بالنسبة لاحتفاظ المرأة الالمانية باسم والدها بدلا من اجبارها على حمل اسم زوجها. وحيت النساء المحتشدات قرار المحكمة

الدستورية في المانيا (الاتحادية) الذي اقرت فيه بعدم حتمية قيام المرأة بحمل اسم زوجها، وانه لها الحق في الاحتفاظ باسم والدها ان ارادت.قبل ذلك بحوالي العقدين من الزمن كانت الساحة الايطالية قد شهدت هجوما مضاداً آخر في مواجهة الميل بالمرأة والاسرة عما اراده لها الله سبحانه.. تلك الضغوط المتواصلة في البرلمان الايطالي.. على بعد خطوات من الفاتيكان زعيمة الكاثوليكية في العالم.. والتي تزعمها اشد البرلمانيين ليبرالية، من اجل اقرار حق الطلاق للرجل الايطالي، بعد حجبه القرون الطوال.

بل ان بعض النسوة الغربيات انتمين الى الاسلام من اجل ان يذقن التجربة ويبعدن عن مواطن التفكك والرذيلة والعفن والقلق والسعار الذي يحكم حياة المرأة الغربية حتى لم تعد الكثيرات منهن يأمن على ازواجهن من المعاشرة اللاشرعية، ولم يعد الازواج انفسهم يأمنون على الذراري والابناء، ويضمنون انحدارهم من الاصلاب!

هذا كله يتسرب بدعاوى السماسرة الذين اطلقوا على انفسهم دعاة تحرير المرأة.. يتسرب الى حياتنا فيستبدل الذهب بالتراب، ويكون هذا الذي كان..

وليس ثمة امة كهذه الامة المسماة تجوزا " بالاسلامية " تجهل كل فن مجد في صيرورة الحياة وتناميها ولكنها تحذق فن هدر الطاقة والتفريط بعناصر التميز والتفوق، واستبدال الغالي بالرخيص.

في سياقات عديدة تمت الصفقات الخاسرة في التاريخ الحديث والمعاصر لهذه الامة.. في مجال الاقتصاد والسياسة والحرب والعلم والاخلاق.. وهاهنا في سياق المرأة والاسرة، كان القانون نفسه يعمل عمله بواسطة جيش من السماسرة وادعية التقدمية والتحرر، لكي يفرط بواحدة من اكثر الحلقات في الحياة الاسلامية تميزا وتفوقا، ويحل محلها: التفكك والعفن والرذيلة والخراب والشذوذ والزهري والسيلان.. واخيرا الايدز الذي بدأ يدق الابواب.

هذا كله كان، ولايزال قائما حتى اللحظات الراهنة في ديارنا، رغم انه حوصر الى حد كبير بقوة معطيات الصحوة الاسلامية ومطالب الفطرة البشرية التي تميل الى الطهر والعفاف والنظافة والاستقرار، والتي لن تحظى بتحققها المأمول الا في اطار هذا الدين.

الا ان المفاجأة التي حدثت، فيما لم يكن احد يحسب له ايما حساب، ان المكر السيء احاق باهله، وتلك هي واحدة من سنن الله سبحانه في خلقه. وليس المقصود هنا حشود السماسرة الذين مرروا العملية فهؤلاء ليسوا باكثر من ادوات او آلات للتوصيل.. وانما الحياة الغربية نفسها التي اخذت تتلقى الهجوم المضاد في قضية المرأة.. في عقر ديارها.. عبر العقدين الاخيرين على وجه الخصوص. واصبح هذا " الغزو " اذا صح التعبير، او الهجوم المضاد، يمثل بمرور الوقت هاجسا ملحاً في دوائر الحياة الغربية على مستوى السلطة والمجتمع واخذ يتصاعد حتى كاد يدفع بعض القيادات الغربية الى تجاوز ما يسمى هناك بالثوابت الديمقراطية من اجل وقف الظاهرة التي اخذت تهدد الحياة الغربية، على ما تصوروه هم بحكم التقاليد الفكرية والسلوكية وضغط الاعراف والمسلمات الخاطئة القادمة من عمق الزمن الاوربي.

أمامي الآن مقال للمفكر الفرنسي (برنارسيشير) بعنوان " الحجاب العرب.. ونحن " ينطوي على بعض المعطيات المهمة، وهي تمس كما يبدو من العنوان، احدى الحلقات المهمة في موضوع المرأة المسلمة، ولا اقول قضيتها، الا وهو (الحجاب).. فهاهو الحجاب يقتحم العري الفرنسي.. التهتك الباريسي المعروف، ويفرض حضوره في قلب المجتمع.. فكيف كانت رؤية الفرنسيين انفسهم للظاهرة؟ كيف كانت ردود الافعال؟

حين تحجبت بعض الفتيات في (الليسيه) يقول سيشير، تحركت الطبقة السياسية وراح يدلي كل بدلوه حول الاحترام الواجب تجاه بلد الضيافة وهو

يقصد ضرورة احترام التقاليد الفرنسية من قبل اولئك الغرباء الذين قبلتهم فرنسا ضيوفا عليها، بغض النظرعن القيم الاخلاقية لهذه التقاليد، حتى ان احد الوزراء هدد باتخاذ موقف، واجتمعت اخيرا الهيئة الدستورية، في حين كاد يعلن بعض المثقفين - جهارا - ان الوطن العلماني في خطر!

ويمضي سيشير الى القول بانه مهما بلغت قدرة عملاء العروض المشهدية على التلاعب والتأثير - وهم لم يترددوا في ممارستها بوقاحتهم المألوفة - فان حادثا كهذا لا يكتسب مثل هذه الاهمية ولايثير مثل هذه الاصداء، الا اذا كان يمس الطبقات العميقة من الوعي الاجتماعي. وبما ان من تحرك هذه المرة ليس من اتباع (الساسة الفاسدين) وانما من المفكرين اللامعين الذين اجتاحتهم فجأة موجة من الغضب المفرط.. فيجب ان نبحث عن الدوافع البعيدة.. انها اعراض (بواتييه) المرضية!

اذن فانا تركمات التأريخ والعمق الصليبي للمثقف الفرنسي الذي لايزال يتذكر محاولة الاقتحام الاسلامي للارض الفرنسية وهزيمته عند بواتييه، هي التي تستفز (في تحليل سيشير) العقل الغربي لمجابهة ظاهرة الحجاب الاسلامي، حتى لو ادى الامر الى خرق الثوابت الديمقراطية وضرورات " التسامح وجمال الاختلاط العرقي " التي يدعيها الفرنسيون. ويبدو لي - يقول سيشير - ان اعراض بواتييه المرضية انما تشهد على جهلنا العميق بحقائق الاسلام كما تشهد في الوقت نفسه على عودة غريبة للمكبوت تجعل العربي (المسلم بالاخص) يحل وقتيا محل اليهودي في الاستيهام العنصري والمتوتر لغيرية (AL teroite)) قوية تنذر وتهدد.

انه " النسيان المذهل " و " النفي المجنون " كما يعبر سيشير، لأفضال الحضارة الاسلامية على الغرب " واذا كان العرب قد بهروا ذاكرتنا القديمة واربكوها الى هذا الحد، فذلك لانهم كشفوا عن قدرتهم على ابتكار الحضارة الاكثر القا وغنى ، عندما كنا لانزال نحن في طور التخلف، وقد لعبت الكنيسة

المسيحية، في اطار هذا الكبت الكبير، دورا لاتحسد عليه ابدا وآن الاوان لكي تعترف بذلك خصوصا وان مذهبها ماكان ليتكون لو لا ان سلبت الكنز النفيس الذي وصلها من الفكر الاسلامي، ثم عملت على طمس معالمه المدهشة ".

ان الفرنسيين، والغربيين عموما هم ضحايا التعصب - كما يقرر سيشير - ضحايا تشويه تجعلهم يتصورون ان تأريخهم هو التاريخ الوحيد الممكن، ويجعلهم يسقطون من خلال هذه الافكار (وعسكريا من خلال الافعال) تحديدهم للسياسة على وقائع تاريخية وثقافية تبدو لهم متطرفة لدرجة انهم يمضون وقتهم في ترسيخ سوء التفاهم.

وبوصفي مدرسا - يقول سيشير - فانني اتساءل كيف لاترون ان المشكلة الملحة ليست الحجاب، وانما الانهيار العام لثقافة لاتعني رجال السياسة عندنا؟ " وتقولون انكم تريدون حماية هوية؟ وأية هوية؟ ولان الجواب لن يكون سهلا فمن الافضل فتح باب المناقشة والانحياز الى الفكر وليس الى الخوف!

"لقد احالتنا الحيوية الدينية الاسلامية فجأة، الى وعي مخيف، ولقد عبر عنها بعض المثقفين المستنيرين من خلال ردود فعل مرعبة وتشنجات غير عقلانية"

هذا بعض ما يخلص اليه سيشير وهو يعالج ردود الفعل الفرنسي تجاه ظاهرة الحجاب في سياق الموقف المسيحي العام من خلال الظاهرة الاسلامية ببعدها الديني وعمقها التاريخي، وهو موقف لايعكس فكر او عاطفة الشرائح الدنيا في المجتمع، او حتى الساسة (الفاسدين)، ولكن المثقفين والمفكرين اللامعين!

أغلب الظن ان القراء لايزالون يذكرون القرار الذي اتخذه ناظر المدرسة الفرنسية بضاحية كريل لمنع الفتيات المسلمات من ارتداء الحجاب، واصرارهن على موقفهن وكيف ان مسيرة شارك فيها عدد كبير من النساء والفتيات المحجبات، اجتازت شوارع العاصمة الفرنسية في الثاني والعشرين من تشرين الاول ١٩٩٢ واعلنت رفضها لقرار ناظر المدرسة الذي دعمته حملة اعلامية

وسياسية شعواء هاجمت النزعة الاسلامية مؤكدة انها صورة من صور التعصب والارهاب في محاولة لأضفاء صبغة سياسية على هذه المسألة حيث تركزت الجهود لاقناع الراي العام الفرنسي بان آباء تلك الفتيات من الاعضاء النشطين بجماعات دينية متعصبة تسعى الى ممارسة نشاطاتها الارهابية في فرنسا!

رغم ذلك فان الحقيقة كانت اكثر ثقلا وحضورا من كل محاولات التضليل. فبعد يومين وجد وزير التربية الفرنسي ليونيل جوسبان نفسه مضطرا لاصدار قرار يحضر فيه التعرض للطالبات المسلمات المتمسكات بارتداء الحجاب. الا ان " الحملة " ضد الحجاب ما لبثتت ان تصاعدت مرة اخرى، رافقها هجوم شرس شنته وسائل الاعلام ضد الاسلام والمسلمين في فرنسا. ويبدو ان هذا الموقف المضاد كان اقوى من تشبث هذا الوزير او ذاك ببقايا القيم والثوابت الديمقراطية، ووجد وزير التربية والتعليم الفرنسي الحالي (فرانسو بايرو) نفسه مسوقا الى اصدار قرار بمنع الحجاب في المدارس والثانويات، والادلاء بجملة من التصريحات لتاكيده وتبريره، الامر الذي دعا اتحاد المنظمات الاسلامية في فرنسا الى عقد اجتماع طاريء لهيئة التنسيق لمسلمي فرنسا، اسفر بعد تدارس الوضع، عن اصدار البيان التالي:

" بعد الاحداث الاخيرة التي تعيشها الجالية المسلمة في فرنسا، وتصريحات وزير التربية والتعليم الفرنسي فرانسوا بايرو حول قراره بمنع الحجاب في المدارس والثانويات، عقدت هيئة التنسيق لمسلمي فرنسا اجتماعا طارئا لها لتدارس الوضع.

" ابتداءً تؤكد الهيئة على مايلي:

١- ان مسلمي فرنسا مع تاكيدهم على احترام مباديء الدولة الفرنسية، يعتبرون ان لبس الحجاب (غطاء الرأس) لايشكل تهجما على المشاعر العامة للمواطنين ولايمس بالامن العام للبلاد، بل يدخل في اطار الحريات الشخصية وحرية الاعتقاد التي يكفلها القانون والدستور الفرنسي ووثيقة حقوق الانسان كما اعد ذلك قرار مجلس الدولة الفرنسي الصادر بتاريخ ١٩٩٢/١١/٢ م.

٢- ان الحملة الاعلامية الشرسة التي شنتها وسائل الاعلام ضد الاسلام والمسلمين في فرنسا قد تؤدي الى مضاعفات سلبية وردات فعل مرتجلة.

انطلاقا من هذا قررت الهيئة مايلي:

أ- طلب لقاء عاجل مع السيد وزير التربية والتعليم الفرنسي.

ب- اعتماد مبدأ الدعوة الى اجتماع طاريء لمسؤولي الجمعيات والمؤسسات الاسلامية في فرنسا لدراسة الوضع الحالي واتخاذ الاجراءات اللازمة"

هيئة التنسيق لمسلمي فرنسا ١٩٩٤/٩/١٢ م

وما من ريب في ان ظاهرة الحجاب تعكس حالة حضارية، فضلا عن عمقها الديني، وان تصدي القيادات الفرنسية السياسية والاعلامية لها انما يجيء بشكل من الاشكال، في سياق صراع بين حضارتين تريد احداهما ان تؤكد عريها واباحيتها وتسعى لأن تدافع عنهما بكل ما أوتيت من قوة باعتباراهما جزءً اصيلا من تقاليدها واعرافها الشائعة، وتسعى الحضارة الاخرى الى تاكيد سترها وانضباطها الاخلاقي الذي ارسيت اسسه منذ بدايات الخليقة حيث اريد للانسان ان يتعفف ويتطهر ويتغطى، وان يتجاوز مظان القبح والفحشاء، مؤمنة بان ليس ثمة اية قيمة (حضارية) تكمن في الطبيعة المتعهرة التي تكون عليها المرأة في الشارع او الدائرة او المعمل، وانه - بالمقابل - ليس ثمة اية عرقلة او اعاقة للصيرورة الحضارية في كون المرأة ترفض التبرج وتلتزم الحجاب.

فاذا اضفنا الى هذا، البعد الديني المشار اليه والذي يمكن ان يستفز ثلاث فئات من خصوم الاسلام، النصارى واليهود والعلمانيين، فضلا عن " الساسة الفاسدين " الذين سبق وان صاغوا مواقفهم المنحازة من كل مايمت الى عالم الاسلام بصلة.. اذا وضعنا هذا كله في المنظور، ادركنا دوافع هذا الهجوم الملح على الحجاب الاسلامي، واستعداد الفرنسيين للتنازل حتى عن ثوابتهم الديمقراطية من اجل وقف الظاهرة عن الانتشار في الساحة الفرنسية، وفيما بعد، في اوربا وديار الغرب كله.

وبموازاة هذا الهجوم الذي فرضه " الحجاب " والظاهرة الاسلامية عموما في ديار الغرب، تلقت الحياة الغربية في مسألة المرأة والاسرة هجمات لاتقل الحاحا، انطلقت هذه المرة من مطالب الفطرة التي فطر الله الناس عليها والسنن التي ركزها الخالق سبحانه في لحمة الخلق، والتي اعتدي عليها وأريد لها ان تنحرف عن مسارها الاصيل الى الحد الذي تصير فيه فلسفة امرأة كالاديبة الفرنسية المعروفة (سيمون دو بوفوار) (وسنعتمد مفرداتها بالحرف): " ان المرأة لاتخلق امرأة بل تصبح امرأة. فليس هناك مصير بيولوجي او نفسي او اقتصادي يحدد الدور الذي تؤديه انثى البشر في المجتمع. ان المدنية ككل هي المسؤولة عن انتاج هذا الكائن الذي يوصف على انه انثوي "!!

اي تبديل هذا لخلق الله؟ واي منطلق يتناقض ابتداءا مع التفرد المؤكد للمرأة على المستويات البيولوجية والنفسية والاجتماعية، وهو التميز الذي يؤكده كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ويتعاملان معه من اكثر من زاوية، ليس من اجل وضع (الانثى) في درجة ادنى من الرجل، وانما من اجل الاستجابة لطبيعة مطالبها الاساسية ووظيفتها الاولى، وهو الامر الذي يجعل المرأة على المستوى الانساني، ليس فقط في حالة تواز مع الرجل يكمل من خلاله احدهما الآخر. بل ان المرأة قد تحتل موقعا اعلى من الرجل في كثير من الحلقات الاساسية للحياة البشرية، كما يلحظ من معطيات هذا الدين في العقيدة والتشريع والسلوك على السواء.

وعلى اية حال فان (سيمون دوبوفوار) انسياقا وراء نزوعها المضاد للأنثى، فضلت ان تضل عشيقة لرفيقها (جان بول سارتر) لمدى نصف القرن على ان تصير زوجة له، عندما طلب منها الزواج، معتقدة ان العلاقة التي تجمعهما كانت اقوى واهم من " ورقة " تحدد هذه الرابطة!

بل انها اصطرعت مع (الانثى) باتجاه آخر لايقل خطورة، فاذا كانت في الحالة السابقة ترفض الرابطة الزوجية التي هي اساس كل علاقة انسانية بين الرجل والمرأة،

فانها في الحالة الثانية رفضت ان تصير المرأة أماً وان تكون كائنا يحرس استمرارية الحياة بحكم قوانين الفطرة. ففي عام ١٩٧١ وقعت مع ٣٤٠ امرأة بيانا يفيد بخضوعها لعملية اجهاض تحديا للقانون الفرنسي آنذاك، والآن، لندع (سيمون دوبوفوار) ولنتحدث بمنطق الارقام الذي ينطوي على مصداقيته بقوة " الاحصاء".

بين يدي ارقام تستند الى دراسات استطلاعية قام بها (معهد سامبل) في المانيا، والى دراسات اخرى نفذت بتكليف من وزارة الاسرة والشباب في المانيا، فضلا عن منشورات الدائرة الاتحادية للاحصاء، وهي من اعداد الاستاذ (نبيل شبيب) وقد نشرها في تقرير " قضايا دولية " التي تصدر في اسلام أباد (العدد ٢٤٩ أكتوبر ١٩٩٤ م):

١- تناقض عدد الزيجات منذ عام ١٩٥٠ الى عام ١٩٩٢ بمعدل ٢٥٪، وازدادت معدلات الطلاق بنسبة ١٦٪ وصلت الى ٣٤٪ من حالات الزواج بمجموعها.

٢- ٢٥٪ من الامهات دون ازواج. ويعيش ٢٥ ٪ من الاطفال دون ام أو دون اب. ويولد ٢٥ ٪ من الاطفال دون زواج.

٣- يعيش حوالي ١٢ مليون شخص على انفراد من اصل ٨٠ مليون نسمة.

٤- وصلت نسب " اسر المعاشرة " الى اسر الزواج الى حوالي ١٠ ٪.

٥- يوجد ٨,٦ ملايين وحدة اسروية دون اطفال و ٥,٢ ملايين بطفل واحد من اصل ٣٥ مليون وحدة اسروية.

٦- ٩٠٪ فئة اعمار ٢٠ - ٣٠ سنة يؤكدن الرغبة في الانجاب.

٧ - ٥٦٪ من المتزوجين والمعاشرين يريدون انجاب طفلين على الاقل.

٨ - ٢٦٪ لا يتمكنون من انجاب اكثر من طفل واحد.

٩ - ٢٥٪ يعللون عدم الانجاب بالعمل و ٢٥٪ بتضييق الحرية الشخصية و ٢٧٪ بسبب الاعباء المالية.

١٠ - رغم الاباحية فان:

- حالات الاغتصاب السنوية التي تم التبليغ عنها للسلطات ٦٣٠٠.
- التقدير الرسمي لحالات الاغتصاب دون تبليغ ٢٠٠ الف.
- حالات التحرش دون التبليغ غير قابلة للتقدير.
- حوادث الاعتداء الجنسي على الاطفال المعروضة امام القضاء ١٦٥٠٠.
- التقدير الرسمي لحوادث الاعتداء الجنسي على الاطفال دون وصولها الى القضاء ٣٠٠ الف.

- ١١- ٥ ملايين امرأة او ٣٣٪ من النساء المتزوجات والمعاشرات يتعرضن للضرب من الزوج او العشير. وتصل حوادث الاعتداء بالضرب الذي يترك آثارا جسدية دائمة على الاطفال الى ٣٠٠ الف سنويا ويموت اكثر من الف سنويا " ضرباً ".

١٢- تقول دراسة جامعية ان متوسط توزيع وقت الام او الاب يوميا يتضمن ما يعادل ٣٠ دقيقة للمكالمات الهاتفية و ٥ ساعات للهوايات ".

★★★★★★★★★★

لنترك الآن ظاهرة دمار الحياة الاسرية وضياع المرأة وتحولها الى آلية للمتعة الصرفة او الربح السريع، وهوانها على نفسها وعلى الآخرين، فهذه مسألة معروفة تماما. ولنقف لحظات عند اثنتين من الهجمات المضادة الاكثر حداثة: ندرة المواليد وتعرض ديموغرافية الغرب للانكماش، ووباء الايدز الذي يهدد بافتراس الرجال والنساء معا ممن تجاوزوا الاشارات الحمراء التي ركزت في فطرتهم وانحدروا في تيار الشهوة ومالوا بالانسان الميل العظيم الذي حذر منه كتاب الله: (والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما) (النساء ٢٧).

ومن بين التقارير والبحوث والتحذيرات العديدة التي كتبت عن المسألة الاولى اكتفي بهذا التقرير الذي اعلنته وكالة رويتر في واشنطن والذي ينطوي على دلالته الواضحة في هذا المجال: " اذا كان السيد بن واتنبيرغ على حق، فان النساء اللائي يفضلن الاهتمام بعملهن اكثر من انجاب الاطفال، سيكن السبب في فصم عرى المجتمع الصناعي الغربي.

ان المشكلة - في تحليله - تتمثل في تناقض منتظم في معدل المواليد في الدول الصناعية الغربية، الامر الذي يمكن ان يقوض هذه المجتمعات(واذا لم يتغير هذا الاتجاه فسينتهي امرنا).. وما أراه جديرا بالاهتمام لدرجة كبيرة هو مدى نقص وعي الناس به بالرغم من اهميته واستمراره لفترة طويلة للغاية.. ان كندا واوربا الغربية واليابان واستراليا ونيوزيلندا و (اسرائيل) وايسلندا تعاني كلها من مشكلة ندرة المواليد وتحتاج الى اتباع سياسات تحفز السكان على الانجاب. اما عن الولايات المتحدة فيقول مكتب التعداد ان ٦٥ طفلا فقط ولدوا لكل ١,٠٠٠ امرأة في سن الانجاب عام ١٩٨٦ وهو ادنى مستوى في تاريخ الولايات المتحدة وقد تناقص معدل الخصوبة فيها من مستوى عال سجل سنة ١٩٥٧م وبلغ ٣,٧٧ ليصل الى اقل من ٢,١ عام ١٩٧٢ وهو المستوى الضروري ليبقى عدد السكان ثابتا. ومنذ ذلك الحين ومعدل المواليد حول رقم ١,٨ ويقول واتنبيرغ الذي يكتب عن الاتجاهات السكانية منذ ٢٥ عاماً، واصدر كتابا بعنوان " ندرة المواليد ": (امامنا في الغرب جيل واحد لنفهم المشكلة اولا ثم نعكس هذا الانهيار الاختياري في معدلات الخصوبة والا فسوف ندفع الثمن.. وأيا كان التحليل الصحيح لأثر الظاهرة فبالنظر الى الانفجار السكاني المستمر في معدل المواليد في العالم الثالث، فربما يمثل سكان دول الغرب تسعة في المائة فقط من سكان العالم عام ٢٠٢٥ بالمقارنة مع ١٥ في المائة في الوقت الحاضر و ٢٢ في المائة في ١٩٥٠. ويعزو الخبراء تناقص معدلات الخصوبة في الغرب الى مجموعة من الاسباب

المختلفة، منها تزايد عدد النساء العاملات خارج البيت، وتناقص معدلات الزواج وارتفاع معدلات الطلاق.. وتوافر وسائل افضل لمنع الحمل وإباحة الاجهاض... ومن بين الدول المتقدمة فان الحكومة الفرنسية هي الاكثر نشاطا في تشجيع الانجاب حتى انها تنشر اعلانات تحمل صورة طفل كتب تحتها: فرنسا تحتاج الى اطفال ".

أما غزو الايدز (او مرض فقدان المناعة المكتسبة) فالحديث عنه يطول وموجة الموت والتآكل والفناء تنداح بسرعة رهيبة في ديار الغرب لكي تأتي على حشود الرجال والنساء الذين جرفتهم الشهوات واندفعوا فيما وراء حافات الاشباع باتجاه بؤر الاسراف والشذوذ.

الاحصائيات كثيرة، وهي تزداد كما يوما بعد يوم.. احداها تذكر ان المصابين في البرازيل وحدها عام ١٩٩٢ تجاوز الربع مليون وان هذا العدد آخذ في الازدياد بمعدلات سريعة، وثمة باحثون في الحكومة الامريكية ذكروا لصحيفة نقباء الاطباء الامريكية في عام ١٩٩١ ان نسبة النساء بين مرضى الايدز في الولايات المتحدة قد زاد على عشرة في المائة. فقد ارتفعت النسبة هناك من ٦,٦ في المائة في عام ١٩٨٥ الى ١١,٥ بالمائة في عام ١٩٩٠ م وكان من بين مرضى الايدز المسجلين مع نهاية عام ١٩٩٠ والذين بلغ عددهم ١٥٨٢٧٩ شخصا، عشرة في المائة او ١٥٤٩٢ من النساء. وقد اصيب ٥١ في المائة من النساء نتيجة المشاركة في الحقن بالوريد عند تعاطي المخدرات بينما اصيب ٢٩ بالمائة منهن بالمرض عن طريق المعاشرة الجنسية.

وثمة هجوم مضاد من محور آخر، لتطويق الشطط والانحراف الذي قاد الحياة الغربية في قضية المرأة والاسرة الى الميل العظيم، بقوة التنظير والادعاءات العلمية، ويتمثل هذا الهجوم بسلسلة من البحوث والكشوف العلمية التي تناولت احد ادعياء النبوة الكاذبين. سيكموند فرويد صاحب النظريات المعروفة في (التحليل النفسي).

ها هو ذا فرويد الذي مارس لاكثر من نصف القرن في ديار الغرب والشرق معا دور (العراب) الذي برر وبارك كل صيغ الانفلات والشذوذ في المسألة الجنسية وقضية المرأة والاسرة عموما.. هاهو ذا يتعرض منذ عقود عديدة، واحيانا من تلامذته انفسهم، لسهام النقد العلمي الذي كاد ان يأتي على نظرياته، في جل حلقاتها الاساسية، من القواعد.

ها هنا يطول الحديث ويمكن - من ثم - الاكتفاء بشاهد واحد اكثر حداثة يتمثل بتلك البحوث (السايكولوجية) التي انجزها البروفيسور (هانز ايزينك) على مدى ثلاثين عاما، وكان آخرها كتابه الموسوم بـ (تدهور وسقوط الامبراطورية الفرويدية) الذي يعتبر الضربة القاضية للتحليل النفسي.

ولقد اوضح ايزينك في بحوثه كافة، وفي كتابه الاخير بوجه الخصوص، ان العلاج النفسي المبني على التحليل النفسي لاينطوي على قيمة تذكر، وان فرويد لم يكن عبقرية علمية، بل عبقرية اتقنت فنون الدعاية واساليبها، وانه كان يتميز بمقدرة لغوية كبيرة اعانته على نحت مفردات ومصطلحات جذابة مثل (عقدة اوديب) او (مبدأ المتعة) وهذه بدورها جعلت من سرده الجديد لقصة قديمة جذابا ومثيرا، وبخاصة لأولئك الذين يفتقرون الى معرفة علمية بموضوع علم النفس.

ان ما كان جديدا في اعمال فرويد - والرأي للبروفيسور ايزينك - لم يكن حقيقيا وما كان حقيقيا لم يكن جديدا وان فكر فرويد لايتضمن شيئا سوى تفسيرات خيالية لأحداث زائفة واخفاقات علاجية ونظريات لامنطقية واستعارات فاضحة غير معترف بها (واستبصارات) خاطئة.

ويقدم كتاب ايزينك طروحات قيمة مثل تأكيده على اهمية علم الوراثة في السلوك وهو الدور الذي حاول التحليل النفسي اغفاله.. باختصار شديد فان عشاق فرويد - في التحليل النهائي لقناعات ايزينك - هم ضحايا الدعاية وتضليل الذات.

ومن بعد فرويد جاء دور الوجودية الالحادية التي كان سقوطها هذه المرة بصيغة دراماتيكية على يد مؤسسها نفسه (جان بول سارتر) عبر لقائه الاخير مع عشيقته (سيمنو دو بوفوار) في نيسان عام ١٩٨٠ م وإذ كان للوجودية دورها هي الاخرى في تأكيد " الميل العظيم " في علاقات الرجل بالمرأة، وتبريرها باسم ضرورات التحقق الذاتي وحرية الاختيار، فإن لنا ان نتصور كيف كان انهيارها بمثابة هجوم آخر من الهجمات التي تستهدف المعطيات المضادة للفطرة، والتي تطل دائما من تحت الاتربة والانقاض لكي تعيد للحياة البشرية ألقها المنطمس وتوازنها المفقود.

وفي هذا السياق نفسه يمكن اعتبار سقوط الماركسية وعودة النبض الديني الى الحياة الغربية ضربة اخرى لدعاة الميل العظيم وانبيائه الكذبة وتنظيراته الشاملة، ودعوة ملحة للعودة الى الطهر والنظافة والاحتشام التي تليق بكرامة الانسان وتفرده على الخلائق وتنسجم مع مطالب الحياة البشرية المتوحدة الآمنة.

ففي غياب الدافع الديني لن يقوم - بحال من الاحوال - مجتمع نظيف متوازن مستقر، وبانهيار هذا الدافع يجيء الزهري والايدز فيأكلان الاخضر واليابس، ولا يأمن الزوج على زوجته ولا هذه على زوجها.. ويتكاثر اولاد الحرام فلاتكاد تستوعبهم المحاضن والملاجيء، ويصير الفعل الجنسي المحرم نزوة عابرة يتحتم اطفاؤها سريعا كما يشرب الانسان العطشان كاساً من الماء فيما قالت به يوما تنظيرات الماركسية البائدة في بدايات تشكل الاتحاد السوفياتي المنحل على يد عالم النفس الماركسي المعروف (ولهلم رايخ) فيما دفع (لينين) نفسه بعد سنتين فحسب، الى ان ينهض محتجا ويدعو الى الاحتشام والتعفف واحترام قوانين العائلة وإلا اصبح الجيل التالي من الروس واتباعهم كله من اولاد الحرام!!

****

البحث الذي يجده القاريء بين يديه سيتحرك باتجاه مغاير تماماً لما سبق وان قاله الغربيون (ومقلدوهم) عن المرأة والاسرة المسلمة.. فثمة في معظم الاحيان الصدق الذي يقف على الطرف الآخر لمعطيات الكذب والتحيز والتزوير والبهتان.. فها هنا قيل كثيرا وكتب كثيرا، ونحن نعرفه جميعاً، بما ان هذه الدائرة: دائرة المرأة والاسرة المسلمة، كانت اشد الدوائر الاسلامية تعرضا لسهام الخصوم والاعداء نقدا وتجريحا.

والآن، فان من بين هؤلاء الخصوم والاعداء انفسهم من قدر لهم ان يكتشف خطأ الحملة المضادة من اساسها، وان يتبين، سواء بجهده الذاتي ام بقوة الموقف الاسلامي نفسه، واقناعه، انه ما من تصميم مناسب تماما للمرأة والاسرة التي تشكل محورها الاساسي، كالتصميم الاسلامي، ومامن رؤية تضع المرأة والاسرة مكانها الحق كرؤية هذا الدين. وسنجد من خلال متابعتنا لعدد من النصوص (الايجابية) في هذا السياق كيف انها، وهي تتحدث عن جوانب شتى من الموضوع: كجوهر المرأة وبناء الاسرة والطفولة، وتعدد الزوجات، والطلاق والحجاب والحقوق التي اعطيت للمرأة او اعيدت اليها، انما تصب جميعا في هذا المعنى الاساس الذي يتبين فيه لكل ذي عينين ان المرأة، وكل ما يتعلق بها، ماكانت ولن تكون اقرب الى موضعها الطبيعي، ووظيفتها الانسانية ومهمتها في الحياة، كما هو الحال في دائرة الاسلام، الامر الذي يمكن ان نجد تعبيرا دقيقا عنه في مقولة للمستشرفة الايطالية (لورا فيشيا فاكليري) وهي انه " فيما يتصل بالزواج لاتطالب السنة الاسلامية باكثر من حياة امينة انشائية يسلك فيها المرء منتصف الطريق متذكرا الله من ناحية، ومحترما حقوق الجسد والاسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية ".

وليس غريبا ان يصدر تقييم موضوعي كهذا عن امرأة بالذات، هي اقدر من الرجل على اية حال في ادراك مسألة كهذه تمس المرأة اولاً واخيرا.

★★★★★★★★★★

ثمة - اخيرا — ما تجب الاشارة اليه: ان المتحدثين في هذا المجال كلهم من الغربيين ماعدا اثنين فحسب هما نظمي لوقا (المسيحي المصري) واحمد سوسة (اليهودي العراقي الذي انتمى الى الاسلام). واستدعاؤهما - اذن - لايتعارض مع عنوان الكتاب.

والمتحدثون هؤلاء - كما سيلحظ القاريء - ليسوا سواء، فبعضهم انتمى الى الاسلام لأسباب شتى قد يكون من بينها " قوة " موقف الاسلام من المرأة والاسرة و " إحكامه " المعجز. وبعضهم الآخر ظل على عقيدته او علمانيته، وقد تكون لبعض هؤلاء الاخيرين - كتابات وبحوث ووجهات نظر مضادة للمعطيات الاسلامية في هذا الجانب او ذاك من جوانب الفكر والحياة.. ولكن هذا لم يكن يمنع كلمة حق تقال بين الحين والحين، حينما يجد هؤلاء انفسهم قبالة الحقيقة الاسلامية الساطعة، او الهندسة الاسلامية المتقنة للحياة.

ومع ذلك فاننا يجب ان نتعامل مع مقولاتهم هذه بقدر من الحذر، وعدم التسليم المطلق، وان نتذكر دائما اننا قبالة باحثين كانت لهم مواقفهم المضادة تلك، من اجل الا تصير تقويماتهم الايجابية جسرا لتمرير فكرهم بنقائه ودخله، بذهبه وترابه، الى العقل المسلم، فتكسب الرضا والقبول.

وتبقى الحكمة بالنسبة للمسلم على الاقل، الضالة التي يبحث عنها لأنه احق بها حيث وجدها، كما علمه رسول الله عليه افضل الصلاة والسلام.

(١)

المرأة كائنا متفرداً

لنبدأ بالمرتكز الاساس للموضوع كله: مايقولونه بصدد المنظور الاسلامي للمرأة جوهرا ووظيفة ومكانا من خارطة الحياة.. مارسيل بوازار، رجل الفكر والقانون الفرنسي المعاصر، يقف عند هذه النقطة اكثر من غيره على اعتبار انها تمثل جزءا اساسيا من موضوع كتابه القيم (انسانية الاسلام)[١].

منذ البدء يؤكد (بوازار)، ولانقول: يكشف، لأن الامر اوضح من ان يحتاج الى كشف، يؤكد[٢] المنظور القرآني المتوازي لجوهر المرأة والرجل على اعتبار انهما سواء، ومن مصدر واحد، وان ليس ثمة ماهو فوق او دون في موقع المخلوقين: " لقد خلقت المرأة في نظر القرآن من الجوهر الذي خلق منه الرجل. وهي ليست من ضلعه بل نصفه الشقيق كما يقول الحديث النبوي[٣] المطابق كل المطابقة للتعاليم القرآنية التي تنص على ان الله قد خلق من كل شيء زوجين"[٤].

وهو يجد نفسه مضطرا للمقارنة بين هذا المنظور وبين ماتقول به الرؤية النصرانية المنحرفة. فالقرآن الكريم " لايذكر ان المرأة دفعت الرجل الى ارتكاب الخطيئة الاصلية، كما يقول سفر التكوين " وينتج عن هذا ان " العقيدة الاسلامية " لم تستخدم الفاظا للتقليل من احترامها كما فعل آباء الكنيسة الذين طالما اعتبروها عميلة الشيطان بل ان القرآن يضفي آيات الكمال على امرأتين: امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ام المسيح (عليه السلام).. [٥]" [٦].

وعلى هذا فان النساء " بوصفهن مؤمنات " يخضعن " لموجبات مماثلة للتي يخضع لها الرجال، وما دمن من الجوهر نفسه، فهن مساويات للرجال.. والزوجان في نظر المسلمين.. متكافئان على الصعيد الروحي والفكري، لكنهما مختلفان بدنياً.. " [٧].

فهذا الاختلاف الاخير ذو الطابع البدني الذي ينعكس ولا ريب على السايكولوجية (النفس) في ادق منحنياتها، والذي اريد له ايضا ان يؤدي دوره اجتماعيا، لاينسحب بالضرورة - كما اريد له في العديد من النظريات القديمة والاديان المحرفة التي بلغت بالمرأة ان تكون (عميلة الشيطان) - على هذه المخلوقة المتميزة ككائن مساو للرجل في اساس الخلق، كما ان هذا الاختلاف لايمكن ان يمحى كما يراد له في المذاهب والنظريات التي تبلغ بالمرأة - احيانا - حدود (الاسترجال) الذي يفقدها خصائصها الاصلية وتكوينها الفطري ويضعها قسرا في خانة الرجال باسم المساواة المطلقة التي هي بطبيعتها ظلم انساني يتنافى ومباديء المساواة.

وهكذا فانه في الاسلام تاخذ المرأة تماما كأية ظاهرة او موجود آخر، مكانها (الوسط) الذي لايميل ولايجور، ويتحدد موقعها على الخارطة باكبر قدر من الضمانات ضد التزوير والتحوير والاستلاب.. ويشار الى عناصر الاختلاف بينها وبين الرجل دون ان يحجب هذا لحظة واحدة، مايكمن وراء هذه العناصر من جوهر مشترك وتواز مطلق في المنظور الانساني. فليس في الاسلام على حقيقته، كما يقول الباحث القبطي الدكتور نظمي لوقا " عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين في القيمة. بل ان المرأة في موازينه تقع مع الرجل على قدم المساواة. لا يفضلها الا بفضل، ولا يحبس عنها التفضيل إن حصل لها ذلك الفضل بعينه في غير مراء. ومامن امرأة سوية تستغني عن كنف الرجل بحكم فطرتها النفسية والجسدية على كل حال. وذلك حسب عقيدة صالحة لكل طور اجتماعي على تعاقب الاطوار والعصور. على سنة العدل التي لم يجد لها عصرنا اسما اوفق من (تكافؤ الفرص) الذي يلغي كل تفريق، ويسقط كل حجة، ويقضي على كل تميز الا بامتياز ثابت صحيح "[٨].

★★★★★★★★★★

ما حدث احيانا مما بولغ في تصويره كثيرا، لسبب او آخر، لا يعدو ان يكون نقطا مبعثرة على صفحة بيضاء، واسعة ممتدة، لا يكاد يرى لها اول ولا آخر، هذه النقاط المعتمة التي هي وليدة ظروف تاريخية معينة وليست - بحال - انبثاقا من الاسس التصورية للمرأة ، لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " الجنة تحت اقدام الامهات "(٩). وقال كذلك - خيركم من احسن الى امرأته(١٠). ولا يمكن ان تصدر مثل هذه الاحكام عن مجتمع لا يحترم المرأة بوصفها امرأة. ودونيتها النسبية الراهنة بازاء الرجل انما هي نتيجة مباشرة للظروف الاجتماعية والاقتصادية الاجمالية للمجتمع الاسلامي..." (١١).

وهذه الظاهرة هي التي دفعت المؤرخ البريطاني (سير هاملتون كب) الى ان يسبق (بوازار) في التأكيد نفسه، فاننا - كما يقول كب - " حين ننتهي من حذف الانحرافات (المتأخرة) وشجبها، تعود تعاليم القرآن والرسول (صلى الله عليه وسلم) الاصلية الى الظهور في كل نقائها ورفعتها وعدالتها المتساوية ازاء الرجل والمرأة معاً. عندئذ نجد ان هذه التعاليم تعود الى المباديء العامة وتحدد الفكرة التي يجب ان يوضع ويطبق القانون بمقتضاها اكثر من ان تعين صيغا قانونية حاسمة. وهذه الفكرة فيما يخص المرأة، لايمكنها الا ان تكون نابضة بالود الانساني وبشعور الاحترام لشخصيتها والرغبة في محو الاضرار التي الحقها بالمرأة سير المجتمع سيرا قاسيا وناقصا فيما مضى. وبعد ما ننتهي من استخلاص هذه الفكرة وهضمها، يمكننا ان نفهم التشريع الخاص بالقرآن فهما صحيحا. حالما نتوصل الى ذلك نرى ان الموقف الاسلامي تجاه المرأة، والطريقة الاسلامية في فهم شخصيتها ونظامها الاجتماعي، وطريقة حماية التشريع الاسلامي لها، تفوق كثيرا ماهي عليه في الديانات الاخرى "(١٢).

اما (بوازار) فانه لاينسى ان يشير الى طبيعة الخطاب القرآني الذي يتوجه " الى الرجال والنساء على السواء "(١٣) بكل ماتتضمنه هذه التسوية في

الاخبار المعرفي او التكليف الشرعي من معنى. وهي المسألة التي يؤكد عليها ليوبولد فايس (محمد اسد) أيضاً[١٤] وبناءاً على هذه التسوية وكنتيجة لها، ينصب الجزاء الاخروي على الطرفين، دونما اية تفرقة بين الرجل والمرأة، ولا تكون التفرقة الا بمقدار الالتزام الشرعي بدرجاته المختلفة وبغض النظر عن الطرف الملتزم رجلا كان ام امرأة.

إن (عبد الله كويليام) الانكليزي المسلم يقف عند هذه النقطة بقوله " لقد وردت في القرآن نصوص كثيرة تثبت ان النساء لايعاقبن في الدار الآخرة فقط على ما أتين من سيء الاعمال، بل كذلك يجازين خير الجزاء على ما فعلنه من طيب اعمالهن بمثل ما يكون للرجال وعلى ذلك نرى ان الله سبحانه لا تمييز عنده في الاسلام بين الاجناس[١٥] وهو نفس ماتلحظه (ايفلين كوبولد)، الانكليزية المسلمة، لدى حديثها عن المرأة من المنظور الاسلامي[١٦] وما يلحظه نظمي لوقا في كتابه القيم (محمد: الرسالة والرسول)[١٧].

(روجيه كارودي) الذي لايقل ايغالا في نسيج الاسلام عن (بوازار) بل انه ليفوقه، لانه يقترب اكثر كمفكر دفعته قناعاته الموضوعية الى احقية هذا الدين بالانتماء.. يطرح في المسألة نفسها عددا من الاستنتاجات، وهو يبدأ - كذلك - بنظرة مقارنة بين الاسلام والنصرانية " فإن القرآن من وجهة النظر اللاهوتية، لا يحدد بين الرجل والمرأة علاقة من التبعية الميتافيزيقية: فالمرأة في القرآن لم تخلق من ضلع آدم، إنها (نصف توأم) لان الله خلق البشر ككل شيء (ومن كل شيء خلقنا زوجين)[١٨]... ".. [١٩] هذا التوازي المطلق الذي هو نقيض التصورات الخاطئة التي شككت جديا - كما يقول روم لاندو - في ان يكون للمرأة روح والتي جعلت منها " مجرد متاع من الامتعة "[٢٠] وكما يقارن (كارودي) بين المنظور الاسلامي للمرأة والمنظور النصراني المحرف، فانه يمد مقارنته باتجاه المعطيات التاريخية: النظرية والتطبيقية التي سبقت

النصرانية، فنحن " اذا قارنا قواعد القرآن بقواعد جميع المجتمعات السابقة فانها تسجل تقدما لامراء فيه ولاسيما بالنسبة لأثينا ولروما حيث كانت المرأة قاصرة بصورة ثابتة "[٢١]. وبالعكس فان اعادة تقييم المرأة في الغرب - انما تم - في بعض نواحيه بتأثير الحضارة الاسلامية حيث يتحتم " الا ننسى بان جميع الوان الرقة في الحب والشفافية فيه.. على نحو ما ظهر في الغرب لدى شعراء التروبادور.. وفي قصائد دانتي.. من اصول عربية إسلامية "[٢٢] وهذا التاكيد الاسلامي على وجدانية المرأة (بما يتضمنه من قيم جمالية) والذي يرفعها درجات لاتكاد تحصى عن المنظور الجنسي الذي عوملت به، باعتبارها متاعا، بصيغ فجة صريحة كما في الحضارة القديمة، وبصيغ شيطانية خادعة مغطاة كما في الحضارة الراهنة، هذا التأكيد المناقض - كذلك - لمعطيات القرن التاسع عشر وممارساته ونظرياته التي ارادت تحويل المرأة الى اداة للانتاج، نلمحه بوضوح في المعطيات الاسلامية، على مستوى التنظير والتطبيق، منذ عصر الرسالة حيث كان للمرأة مكانها الوجداني المتميز، وحيث يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم اصحابه (رضوان الله علبهم) في خطبة الوداع ان " يرفقوا بالقوارير " وفيما بعد، حيث نجد المسلمين يقاومون - كما تلحظ الباحثة الالمانية (زيغريد هونكه) - " كل التيارات المعادية للمرأة واستطاعوا القضاء على هذا العداء للمرأة والطبيعة وجعلوا من منهجهم مثالا احتذاه الغرب ولايملك الان منه فكاكا، وأصبح الاستمتاع بالجمال جزءا من حياة الاوربيين شاءوا ام ابوا " [٢٣].

وهونكه، كأمرأة، يحلو لها ان تقف قليلا عند هذه القيمة الجمالية الانسانية في حصارة الاسلام، وهي قيمة مؤكدة، مرة اخرى، على مستويي التصور والتنفيذ، وإن كانت الافلام المحرفة قد سعت للتدخين عليها، ثم جاء التأكيد المصطنع للحضارة الغربية على (مكياجية) الجمال الانثوي، اذا صح التعبير،

لكي ينسي الكثيرين الاصول المتوازنة للتعامل الجمالي مع المرأة كما شهدته حضارة الاسلام. و (هونكه) تشير الى قريب من هذا عندما تقول " ان احترام العرب لعالم النساء واهتمامهم به ليظهران بوضوح عندما نرى انهم خصوه بفيض من العطور وبانواع الزينة التي وان لم تكن مجهولة قبلهم، الا انها فاحت بثروة الشرق العطرية الزكية، وبالاساليب الفائقة في تحضيرها. كذلك فان العثنون الذي كان يزين الوجوه الحليقة، منذ حملات الصليبيين، على طريقة النبي صلى الله عليه وسلم قد اصبح نموذجا يقلده الرجال "[٢٤].

****

(درمنغم)، المستشرق الفرنسي، يقف هو الآخر عند المكانة التي تحتلها المرأة في الدائرة الاسلامية، ويجري مقارنة بين هذه المكانة وبين ماهي عليه في النصرانية من جهة، والحضارة الغربية المعاصرة من جهة اخرى، مؤكدا على الجوانب الروحية والوجدانية التي كان يطمس عليها خارج الاسلام، فمن " المزاعم الباطلة ان يقال ان المرأة في الاسلام قد جردت من نفوذها زوجة واما، كما تذم النصرانية لعدها المرأة مصدر الذنوب والآثام ولعنها اياها. فعلى الانسان ان يطوف في الشرق ليرى ان الادب المنزلي فيه قوى متين، وان المراة فيه لا تحسد بحكم الضرورة نساءنا ذوات الثياب القصيرة والاذرع العارية، ولاتحسد عاملاتنا في المصانع وعجائزنا. ولم يكن العالم الاسلامي ليجهل الحب المنزلي والحب الروحي، ولا يجهل الاسلام ما اخذناه عنه من الفروسية المثالية والحب العذري "[٢٥].

ان التاكيد على المنظور الحضاري الاسلامي للمرأة نلحظه كذلك في عبارات للمفكر الفرنسي المعروف غوستاف لوبون يجري فيها هو الآخر، مقارنة بين وضع المرأة في البيئتين الاسلامية والنصرانية، وهو لا يقتصر - بطبيعة الحال - على الجانب الوجداني، او الجمالي، من مسألة المرأة، وانما يتجاوزهما لتسليط الضوء على " الاحترام " الذي حظيت به المرأة و " المكانة " التي رفعت اليها

او أعيدت اليها من خلال المنظور الاسلامي. " فاذا اردنا ان نعلم درجة تأثير القرآن في امر النساء وجب علينا ان ننظر اليهن ايام ازدهار حضارة العرب، وقد ظهر مما قصه المؤروخون انه كان لهن من الشأن ماتفق لأخواتهن حديثا في اوربا... ان الاوربيين اخذوا عن العرب مباديء الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة. فالاسلام اذن، لا النصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الاسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافا للاعتقاد الشائع. واذا نظرت الى نصارى الدور الاول من القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئا من الحرمة للنساء، واذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك في هذا الامر، وعلمت ان رجال عصر الاقطاع كانوا غلاظا نحو النساء قبل ان يتعلم النصارى من العرب امر معاملتهن بالحسنى "(٢٦).

بل ان (لوبون) يمضي الى ابعد من ذلك فيقول بان " فضل الاسلام لم يقتصر على رفع شأن المرأة، بل نضيف الى هذا انه اول دين فعل ذلك "(٢٧)، اذا فسرنا هذه الاولوية بان الاسلام استعاد جوهر الموقف الديني العام من المرأة، واضاف اليه، ووضع لمساته الاخيرة بحيث يصبح هذا هو الموقف الاخير المتكامل، الملائم في كل زمان ومكان.

وهذا ينقلنا - بالضرورة - الى الحلقة الثانية من هذا البحث في محاولة لمتابعة ما قدمه الغربيون بصدد " الحقوق " التي منحها الاسلام للمرأة، والتغييرات الشاملة التي اجراها على موقعها " الاجتماعي " على وجه التحديد.

(٢)

الحقوق

ها هنا نبدأ ايضا ببوازار، فهو كرجل قانون، يعرف اكثر من غيره الحقوق التي حظيت بها المرأة في ظل الاسلام، وقيمتها الحقيقية، مقارنة بالاستلاب الذي كانت تعانيه قبل الاسلام وبعده في العديد من البيئات الجاهلية والوضعية والدينية المحرفة.

انه يقرر منذ البدء بان " التشريع القرآني بنصه وروحه " أدخل " تحسينا كبيرا على الوضع الذي كانت فيه المرأة داخل الجزيرة العربية قبل الاسلام رغم صعوبة " القضاء دفعة واحدة على عادات موروثة كابرا عن كابر.. "[٢٨] وهو يجد ان الشريعة الاسلامية " تهدف بشكل عام الى غاية متميزة هي الحماية " وان التشريع الاسلامي " يقدم للمرأة تعريفات دقيقة عما لها من حقوق ويبدي اهتماما شديدا بضمانها " وان القرآن والسنة إذ " يحضان على معاملة المرأة بعدل ورفق وعطف، ادخلا مفهوما اشد خلقية عن الزواج وسعيا الى رفع وضع المرأة بمنحها عددا من الطموحات القانونية "[٢٩]، وبعد تأكيد هذه المبادىء الاساسية يشير بوازار الى عدد من الحقوق التي منحها الاسلام المرأة من مثل " المساواة امام القانون والملكية الخاصة الشخصية، والارث " مؤكدا ان حقوق المرأة في الاسلام " هي مقدسة "[٣٠] وهكذا اصبح حق المسلمة في المساواة الاجتماعية، وفي الملكية الخاصة الشخصية، وفي الاحترام والامان في الزواج، وفي التعويض بحال الطلاق، وفي التمتع بنفع انثوي محض، حقا مكتسبا " وهو يذكر بان الشريعة الآلهية مادامت قد سبقت ومحضتهن اياه فان " عليهن للحصول على تطبيقه من قبل الرجال، ان يذكرن بالاسلام بالتحديد "[٣١].

وفي هذا كله يستنتج بوازار بان " الدين الجديد ادخل إصلاحات خطيرة على وضع المرأة "[٣٢] وان تعاليمه قرآنا وسنة " اثبتت بانها حامية حمى حقوق المرأة التي لا تكل "[٣٣].

باحثون غربيون آخرون يتحدثون عن المسألة نفسها: (الحقوق التي منحها الاسلام المرأة) ويقدمون المزيد من التفاصيل. لقد " رفع الاسلام شأن المرأة في بلاد العرب، وحسن حالها " يقول اميل در منغم، وبعد ان يستشهد بحديث نبوي شريف، وقول لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في هذا الصدد، يشير الى ان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذ اوصى الزوجات باطاعة ازواجهن أمر في الوقت " نفسه بالرفق بهن، ونهى عن تزويج الفتيات كرها، وعن اكل اموالهن بالوعيد او عند الطلاق.. ولم يكن للنساء نصيب في المواريث ايام الجاهلية.. فانزلت الآية التي تورث النساء.

وفي القرآن تحريم لوأد البنات، وامر بمعاملة النساء بالعدل، ونهى محمد (صلى الله عليه وسلم) عن زواج المتعة وحمل الإماء على البغاء "[٣٤].

ويؤكد هنري دي كاستري باننا " لو رجعنا الى زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) ومكان ظهوره لما وجدنا عملا يفيد النساء اكثر مما اتاه (صلى الله عليه وسلم) فهن مدينات لنبيهن بامور كثيرة. وفي القرآن آيات ساميات في حقوقهن وما يجب لهن من الرجال "[٣٥].

اما صنوهما الفرنسي جاك ريسلر فيعلن " بان المرأة قد وضعت على قدم المساواة مع الرجل في القضايا الخاصة بالمصلحة فأصبح باستطاعتها ان ترث وان تورث، وان تشتغل بمهنة مشروعة "[٣٦].

ويرى لويس سيديو " ان القرآن، وهو دستور المسلمين المدني، رفع شأن المرأة بدلا من خفضه، فجعل حصة البنت في الميراث تعدل نصف حصة اخيها مع ان البنات كن لا يرثن في زمن الجاهلية " وهو " وان جعل الرجال قوامين على

النساء، بين ان للمرأة حق الرعاية والحماية على زوجها، واراد الا تكون الأيامى جزءا من ميراث رب الاسرة فأوجب ان يأخذن مايحتجن اليه مدة سنة، وان يقبضن مهورهن، وان ينلن نصيبا في اموال المتوفى "[٣٧].

****

ويقف كوستاف لوبون طويلا عند هذه المسالة فيشير الى ان الاسلام " كان ذا تاثير عظيم في حال المرأة في الشرق " وانه " رفع حال المرأة الاجتماعي وشأنها رفعا عظيما بدلا من خفضهما، خلافا للمزاعم المكررة على غير هدى " وان " القرآن قد منح المرأة حقوقا إرثية احسن مما في اكثر قوانيننا الاوربية " ويذكر بان " احسن طريق لأدراك تاثير الاسلام في احوال النساء في الشرق هو ان نبحث حالهن قبل القرآن وبعده... " ولا يكتفي لوبون بالقول بان الاسلام " حسن حال المرأة كثيرا " بل انه يمضي الى اعتباره " اول دين رفع شأنها "[٣٨].

وغير هؤلاء الباحثين الفرنسيين، مفكرون من مختلف بقاع الارض لفت انتباههم هذا الدور الذي مارسه الاسلام إزاء المرأة، والحقوق التي منحها اياها. ول ديورانت، الباحث الامريكي المعاصر يقول بان الاسلام " رفع من مقام المرأة في بلاد العرب "ثم ما يلبث ان يسرد عددا من المعطيات. لقد " قضى على عادة وأد البنات، وسوى بين الرجل والمرأة في الاجراءات القضائية والاستقلال المالي، وجعل من حقها ان تشتغل بكل عمل حلال، وان تحتفظ بمالها ومكاسبها، وان ترث، وتتصرف في مالها كما تشاء. وقضى على ما أعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء الى الابناء فيما ينتقل لهم من متاع، وجعل نصيب الانثى في الميراث نصف نصيب الذكر، ومنع زواجهن بغير ارادتهن. "[٣٩]

هاملتون كب، المستشرق البريطاني يرى " ان فكرة الاسلام فيما يخص المرأة لا يمكنها الا ان تكون نابضة بالود الانساني، وبشعور الاحترام لشخصيتها والرغبة في محو الاضرار التي الحقها بالمرأة سير المجتمع سيرا ناقصا وقاسيا فيما مضى... "[٤٠].

مونتكمري وات الذي تلى كب في حركة الاستشراق البريطاني يلحظ كيف " كانت التشريعات القرآنية تهدف الى ان لايعتدي الوصي على حقوق اي قاصر او امرأة في الميراث الطبيعي "[٤١]، كما يلحظ انه " بالرغم من ان الانسان (المسلم) يملك ممتلكاته في حياته ويستطيع التصرف بها كما يشاء فهو مسؤول عنها امام عائلته "[٤٢].

الباحثة الايطالية لورا فيشيا فاكليري تشير الى " ان المرأة المسلمة الى جانب تمتعها بحق الوراثة مثل اخوتها، ولو بنسبة اصغر، وبحقها في ان لاتزف الى احد الا بموافقتها الحرة، وفي ان لا يسيء زوجها معاملتها، تتمتع ايضا بحق الحصول على مهر الزوج، وبحق اعالته اياها، وتتمتع باكمل الحرية، اذا كانت مؤهلة لذلك شرعيا، في ادارة ممتلكاتها الشخصية "[٤٣].

****

ونحب ان نقف قليلا إزاء مايقوله نظمي لوقا الباحث والطبيب المصري الذي لم تحجبه نصرانيته عن رؤية ما في هذا الدين من تميز وتألق، بل بالعكس، دفعته لأن يعاينها ويعلن ويعرب عن اعجابه بها وتأثره بدلالاتها ومعانيها.. " المرأة في الاسلام - يقول الرجل - انسان له كل حقوق الانسان وكل تكاليفه العقلية والروحية فهي في ذلك صنو الرجل تقع عليها اعباء الامانة التي تقع عليه، امانة العقيدة والايمان وتزكية النفس.. وقد نجد هذا اليوم من بدائه الامور، ولكنه لم يكن كذلك في العالم القديم، في كثير من الامم حيث كانت المرأة تباع احيانا كما تباع السلعة.. وكانت في كثير من الاحيان منقوصة الاهلية لا تمارس التصرفات المالية والقانونية الا عن طريق وليها الشرعي وبموافقته، بل لم تكن تملك تزويج نفسها على الخصوص، وانما الامر في ذلك لوليها يجريه على هواه واكثر من هذا كانت قبائل العرب في الجاهلية تئد البنات بكراهة لهن وازدراء لشأنهن ومن لم يئدهن كان يضيق بهن ضيقا شديدا"[٤٤] ويمضي لوقا الى القول

بان " في سور القرآن اشارة الى المساواة عند الله بين الذكر والانثى بغير تفريق في التكليف او الجزاء، واشارة صريحة الى مساواة المرأة والرجل في ثمرات الاعمال والجهود.. وفي بعض الامم القديمة، والحديثة، كانت المرأة تحرم غالبا من الميراث، فأبى الاسلام هذا الغبن الفاحش.. "(٤٥).

وهناك من الغربيين، ممن انتهت بهم قناعاتهم الى اعتناق الاسلام، من قالوا كلمتهم في الموضوع، وهذا امر طبيعي ماداموا قد اقتربوا من الاسلام هذا القرب، ومادامت قضية المرأة في الدائرة الاسلامية تمثل واحدة من اشد نقاط التألق والجذب إثارة للانتباه!

من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: المفكر والفنان الفرنسي المعروف اتيين دينيه الذي لمس بوضوح " حب محمد (صلى الله عليه وسلم) للنساء، فضلا عن حبه للانسانية والعدالة " وكيف انه عليه السلام " عطف عليهن جميعا وحاول في كل محاولة انصافهن، فحرم اول ماحرم وأد البنات.. ثم وضع حدا (اقصى) لتعدد الزوجات.. واتبع ذلك بان منح المرأة حق المطالبة بالطلاق ان لم يوف الرجل بواجبات الزوجية، وبفضل تشريعاته الحكيمة اصبحت البنت البالغ تستشار قبل زواجها، واصبح المهر يعطى للاب بل للعروس نفسها. ومنح الرسول ايضا المرأة حقا في الميراث "(٤٦).

وليوبولد فايس المجري المسلم، الذي يؤكد على ان المرأة المسلمة شخصية تملك حقها ابتداء " وليس لمجرد صلتها بالرجل كأم او زوجة او اخت او ابنة، وإنها - لذلك - من حقها ان تقتني ملكا وان تتعاطى التجارة على حسابها ومسؤوليتها، وان تهب نفسها لمن تشاء عن طريق الزواج "(٤٧).

وكو بولد الانكليزية المسلمة التي تعلن كيف انه " لما جاء الاسلام رد للمرأة حرياتها، فاذا هي قسيمة الرجل لها من الحق ماله وعليها ماعليه، ولافضل له عليها الا بما يقوم به من قوة الجلد وبسطة اليد واتساع الحيلة، فيلي رياستها،

فهو لذلك وليها يحوطها بقوته ويذود عنها بدمه وينفق عليها من كسب يده فاما فيما سوى ذلك فهما في السراء والبأساء على السواء. ذلك ما اجمله الله (سبحانه) بقوله تعالى (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) (٤٨) وهذه الدرجة هي الرعاية والحياطة لايتجاوزها الى قهر النفس وجحود الحق... "(٤٩) وتمضي كوبولد في تعداد المزايا التي منحها الاسلام للمرأة والحقوق التي ردها اليها، فتشير الى الزام الرجل باعالة المرأة، وتقديمه النفقة بعد الطلاق، والى ان للمرأة ان ترث وتورث وان تعمل وتشتغل، فليس في الاسلام مايمنع ذلك ابدا "(٥٠)، وتؤكد ان " جهل النساء في الاسلام امر لايتفق واوامر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقد امر رسول الله النساء بطلب العلم وحظر الاسلام الجهل على المؤمنين به وشدد في ذلك بما لا يدعو مجالا للشبهة والتاويل "(٥١).

وما كلوسكي، الالمانية المسلمة التي تجد كيف انه " في ظل الاسلام " استعادت المرأة حريتها واكتسبت مكانة مرموقة. فالاسلام يعتبر النساء شقائق مساوين للرجال، وكلاهما يكمل الآخر "(٥٢) تواصل حديثها عن المرأة فتقول " لقد دعا الاسلام الى تعليم المرأة، وتزويدها بالعلم والثقافة لأنها بمثابة مدرسة لاطفالها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) (٥٣) لقد منح الاسلام المرأة حق التملك وحرية التصرف فيما تملك.. والمهر في نظر الاسلام هو حق شخصي للمرأة والمرأة في الاسلام تتمتع بحرية الرأي والتعبير "(٥٤) ثم تخلص الى القول بان المرأة المسلمة " معززة مكرمة في كافة نواحي الحياة، ولكنها اليوم مخدوعة مع الاسف ببريق الحضارة الغربية الزائف. ومع ذلك سوف تكتشف يوما ما كم هي مضللة في ذلك، بعد ان تعرف الحقيقة "(٥٥). وهذا كله ماتؤكده امرأة غربية اخرى هي روزو ماري هاو والتي تلحظ كيف " ان الاسلام قد كرم المرأة واعطاها حقوقها

كانسان وكامراة " وانه منحها " دورا اهم واكبر من مجرد الوظيفة، وهو الانجاب وتربيبة الابناء، ومع ذلك فقد اعطى الاسلام للمراة الحق في العمل اذا رغبت في ذلك، واذا اقتضت ظروفها ذلك "[٥٦].

وهناك احمد سوسة اليهودي العراقي، الذي انتمى للاسلام منذ صدر شبابه بعد ان خبر الاديان والمذاهب الاخرى. يدلي دلوه في هذا المجال فيؤكد بانه " يجب الا يغرب عن البال ان المرأة لم تكن قد حازت حقوقا تتمتع بها الا بعد ظهور الاسلام لان الاسلام هو اول من رفع قدر المرأة واعطاها حقها في الحياة كحق الرجل "[٥٧] كما يؤكد بان المرأة " كانت في ديار العرب قديما محض متاع، مجرد ذكرها امر ممتهن. هكذا كان الوضع عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم فرفع مقام المراة في آسيا من وضع المتاع الحقير الى مرتبة الشخص المحترم الذي له الحق في الحياة حياة محترمة، كما ان له الحق في ان يملك ويرث المال "[٥٨].

****

وثمة من الباحثين من يجري مقارنة بين وضع المراة في الاسلام، ووضعها في المذاهب والاديان والحضارات الاخرى وبخاصة الحضارة الغربية الراهنة، فمن خلال مقارنة كهذه يمكن ان يستنتج المرء الكثير بهذا الصدد، لاسيما اذا كان المخاطب من اولئك الذين اعشى ابصارهم وهج هذه الحضارة وايقنوا بان معطياتها في كل مجال هي الحق المطلق وان ما دونه الباطل والضلال!

ان مفكرا كروجيه كارودي الذي خبر فكر الغرب واعتصر تجربته الحضارية يمكن ان يكون اول المتحدثين بهذا الخصوص، انه يقول " اذا نحن قارنا قواعد القرآن بقواعد جميع المجتمعات السابقة فانها تسجل تقدما لامراء فيه ولاسيما بالنسبة لأثينا وروما حيث كانت المراة قاصرة بصورة ثابتة "[٥٩] وهو يذكر كيف انه " في القرآن تستطيع المراة التصرف بماتملك وهو حق لم يعترف لها به في معظم التشريعات الغربية ولاسيما في فرنسا الا في القرن التاسع عشر

والعشرين. اما في الارث فصحيح ان للانثى نصف ما للذكر، الا انه بالمقابل تقع جميع الالتزامات وخاصة اعباء مساعدة اعضاء الاسرة الآخرين على عاتق الذكر. المراة معفاة من كل ذلك.. والقرآن يعطي المراة حق طلب الطلاق وهو ما لم تحصل عليه المراة في الغرب الا بعد ثلاثة عشر قرنا "[٦٠].

والباحثة الايطالية فاكليري تؤكد المقارنة نفسها فاذا " كانت المرأة قد بلغت، من وجهة النظر الاجتماعية في اوربا، مكانة رفيعة، فان مركزها شرعيا على الاقل، كان حتى سنوات قليلة جدا، ولايزال في بعض البلدان، اقل استقلالا من المراة المسلمة في العالم الاسلامي "[٦١]. وذلك ايضا مايذهب اليه الباحث الامريكي المعاصر ديورانت، اذ يؤكد كيف " كان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة في بعض البلدان من ناحية هامة، تلك هي انها كانت حرة التصرف فيما تملك، لا حق لزوجها او لدائنيه في شيء من املاكها.. "[٦٢].

ويذكر روم لاندو، المفكر والفنان البريطاني المعاصر بانه " يوم كانت النسوة يعتبرن، في العالم الغربي مجرد متاع من الامتعة، ويوم كان القوم هناك في ريب جدي من ان لهن ارواحا، كان الشرع الاسلامي قد منحهن حق التملك. وتلقت الارامل نصيبا من ميراث ازواجهن، ولكن البنات كن عليهن ان يقنعن بنصف حصة الذكر.. الا ان علينا ان لا ننسى ان الابناء الذكور وحدهم كانوا، حتى فترة حديثة نسبيا، ينالون في الديار الغربية حصة من الارث "[٦٣].

ويوجز لايتنر مقارنته بكلمات قلائل قد تغني عن الكثير " ان للمرأة المسلمة مركزا شرعيا افضل من مركز المراة الانكليزية بكثير.. "[٦٤].

وتوسع ايفلين كوبولد دائرة المقارنة فتؤكد " بان حرية المراة في الاسلام اوسع وافضل من حريتها عند غيره من الامم والجماعات "[٦٥].

وكذلك تفعل صنوتها الالمانية المسلمة ماكلوسكي، اذ تقول انه " في الوقت الذي نرى فيه المراة في اوربا كانت محرومة من جميع الحقوق التي منحها الاسلام للمراة الى عهد قريب جدا، نجد الاسلام قد منح بالاضافة الى حقوق التعلم والتملك.. الخ، حق ابرام العقود للزواج.. الخ والمراة في الاسلام تتمتع بحرية الفكر

والتعبير.. "[٦٦] اما روزماري والتي اعلنت اسلامها هي الاخرى فتشير الى " ان الاسلام قد كرم المرأة واعطاها حقوقها كانسانة، وكامرأة، وعلى عكس ما يظن الناس من ان المراة الغربية قد حصلت على حقوقها.. فالمراة الغربية لا تستطيع - مثلا - ان تمارس انسانيتها الكاملة وحقوقها مثل المراة المسلمة. فقد اصبح واجبا على المراة في الغرب ان تعمل خارج بيتها لكسب العيش، اما المرأة المسلمة فلها حق الاختيار.. "[٦٧].

ويكاد يكون كوستاف لوبون اكثر الغربيين الذين عنوا بمقارنة كهذه بين وضع المرأة في الاسلام ووضعها في الحضارات الاخرى، ولذا سنقف عنده قليلا.

انه يقول - مثلا - عن مباديء المواريث كما نص عليها القرآن بانها " بالغة العدل والانصاف.. ويظهر من مقابلتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والانكليزية ان الشريعة الاسلامية منحت الزوجات، االلائي يزعم ان المسلمين لايعاشرونهن بالمعروف، حقوقا في المواريث لا تجد مثلها في قوانيننا "[٦٨].

ويصف حالة النساء المسلمات " الحاضرة " بانها " افضل من حالة اخواتهن في اوربا.. وان نقصان شأنهن حدث خلافا للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال.. ان الاسلام الذي رفع المرأة كثيرا بعيد من خفضها، ولم نكن اول من دافع عن هذا الرأي، فقد سبقنا اليه كثيرون "[٦٩] كما يتحدث عن " حقوق الزوجة التي نص عليها القرآن ومفسروه فيجد انها افضل كثيرا من حقوق الزوجة الاوربية فالزوجة المسلمة تتمتع باموالها الخاصة فضلا عن مهرها وعن انه لايطلب منها ان تشترك في الانفاق على امور المنزل، وهي اذا اصبحت طالقة اخذت نفقة، واذا تأيمت نالت حصة من تركة زوجها. وتعامل المرأة المسلمة باحترام عظيم، فضلا عن تلك الامتيازات، وتنال بذلك حالا اجمع الباحثون المنصفون على الاعتراف بحسنها "[٧٠] وما يلبث لوبون ان يصدر حكمه في هذا الشأن " ان المرأة في الشرق اكثر احتراما وثقافة وسعادة منها في اوربا على العموم تقريبا "[٧١] وهذا يكفي.

(٣)

الحجاب

وثمة ما يرتبط بالمنظور الاسلامي للمراة، والمكانة التي وضعها فيها، تلك هي مسألة الحجاب، او بعبارة اخرى الاحتشام الذي هو نقيض التبذل والتحلل والاسفاف، يرتبط بالموقفين السابقين لانه في حقيقة امره ذو بعدين احدهما انساني يمس المرأة كمخلوق آدمي أريد له ان يحافظ على خصائصه الانسانية التي تميزه عن عوالم الحيوان الادنى منزلة. وثانيهما اجتماعي يتعلق بالمرأة كمخلوق اجتماعي، اريد له ان يؤدي اسوة بالرجل وظيفة اجتماعية لها شروطها ومقوماتها التي بدونها سوف تنحرف المرأة عن اداء هذه الوظيفة بالصيغة المتوخاة التي رسمت لها.

ان الحجاب الذي فرضه الاسلام واكده بما لايقبل ترددا اوجدلا، انما هو واحد من اهم الوسائل والممارسات التي تعين المراة على التحقق بدورها على المستويين الانساني والاجتماعي. وبدونه فانها ستنحرف - بالتاكيد - عن سويتها في المجالين، ستفقد القدرة على التحقق المطلوب، مهما بررت المحاولة، ومهما غطيت بديكورات التزيين الشيطاني الذي يصنعه المذهب او الفكر حينا، وتصوغه الممارسة الخاطئة حينا آخر، الامر الذي يمكن ان تضعه امام العين والفؤاد مجرد مقارنة منظورة بين حال المراة في دائرة الالتزام الاسلامي، وحالها في سائر الدوائر الاخرى.

ونحن هنا لا نريد ان نمضي ابعد من هذا في الحديث عن الحجاب كقيمة اساسية من قيم الاسلام في تعامله مع المرأة وتصميمه لدورها في الارض، فلقد قيل فيه الكثير وكتب الكثير، ولكننا نمهد - فحسب - لما يريد ان يقوله عدد

من الغربيين ادركوا - بحق - ابعاد هذه القيمة فتحدثوا عنها بمايزيل ماعلق بها من ترهات الخصوم وشبهات الخبثاء والجهلة على السواء.

وليس الحجاب الاسلامي اوالحشمة التي يتطلبها هذا الدين، تقتصر كما قد يتوهم البعض حتى من المتدينين انفسهم على نوع اللباس الذي يتحتم على المرأة ان تتحجب به، كما انه ليس مجرد تحديدات مكانية ترسم للمرأة دائرة وجودها وحركتها، ولكنه مجموعة الشروط والممارسات والقيم والتصاميم العقدية والاجتماعية التي تمكن المرأة من تنفيذ مطالب الحجاب والاحتشام.

وهذه الشروط تستلزم اول ما تستلزم ايجاد الارضية او البيئة الحضارية الملائمة التي تتيح ممارسة قيم الحشمة والتحقق بمفرداتها.

البيئة الحضارية على امتدادها، وبكافة جزيئاتها وتفاصيلها، وعندما نقول الحضارة فاننا نعني اول مانعني العقيدة التي تصنعها وتصوغها وتمنحها ملامحها وشخصيتها، اي العقيدة المتحققة في ارض الواقع وليست تلك التي تهوم في سماء المثاليات والاماني والاحلام، وليست كذلك تلك التي اريد لها ان تعتقل في الجامع او المسجد او حتى بين جدران البيوت. وفضلا عن هذا فان هناك شروطا اخرى لا يمكن لها ان تجد سبيلها الى الواقع ان لم تتحرك في اطار بيئة اسلامية واضحة المعالم، تعرف كيف تتعامل مع مفردات العقيدة التي رسمتها ومن ابرز هذه الشروط — ولا ريب — ما يمكن تسميته بتيسيرات الزواج، او بعبارة اخرى التيسيرات الخاصة بالاشباع الجنسي كحاجة اساسية من حاجات الحياة البشرية غريزة بشرية وامتدادا نوعيا. فاذا ما تصورنا الامر على هذا المستوى ادركنا كيف تكون تشريعات من مثل تعدد الزوجات، والطلاق، والحض على الزواج المبكر.. الى آخره، قنوات تصب جميعا في هذا الهدف الاساس.

هذا من جهة الفعل الايجابي، اما على مستوى الدفع السلبي فهناك ازالة ومنع كل مامن شأنه ان يثير فتنة في الجماعة المسلمة، فيشعل في نسيجها نار الشهوات، ويدفع الرجال والنساء معا الى تجاوز مطالب الحجاب والاحتشام.

فليس اللباس، او التحديد المكاني، اذن سوى مفردتين فحسب من مفردات هذا الدين، الذي امر بالحجاب ودعا اليه صباح مساء واعتبره ضرورة من ضرورات الحياة الاسلامية. ومن خلال هذا الاتجاه الشمولي سنحاول ان نتابع عددا من النصوص الغربية التي تحدثت عن الحجاب الاسلامي من زوايا عديدة لامست بعض هذه المفردات على امتدادها وتنوعها. ومن خلال هذا الاتجاه الشمولي ندرك ما الذي يريد ان يقوله لنا مفكر كبوا زار من ان القانون " في الاسلام يصبو الى التشريع بطريقة واقعية وغير مثالية آخذا بعين الاعتبار طبيعة الانسان الحقيقية. والاسلام يفرض الحشمة وهي لا تتحقق، على صعيد الجنس، الا في الزواج. ومن (هذا المنظور) أقر الاسلام تعدد الزوجات والطلاق ولم يكن هو بالطبع الذي اتى بهما لانهما وجدا في جميع الحضارات - لكنه ضيق نطاق مشروعيتهما.. ان تعدد الزوجات مباح لكن الاقتصار على زوجة واحدة يبقى الغاية المراد بلوغها. انه يظل مثلا اعلى.. وربما غير متلائم مع طبيعة الرجل الحقيقية. فقد يكفل تعدد الزوجات الشرعي حياة عائلية اكثر احتشاما من التي يؤمنها اقتصار غير متقيد به على زوجة واحدة، ويشتمل بشكل طبيعي على الخيانة الزوجية والدنس والكذب، ويقود الى اكراه بعض النساء على البقاء عازبات كما يؤدي الى ان يحرم عدد كبير من الازواج الاولاد "[٧٢].

وندرك كذلك تلك المقارنة التي يعقدها هنري دي كاستري بين البيئة الاسلامية والبيئات الغربية والتي يقول فيها " ان الناس بالغوا كثيرا في مضار تعدد الزوجات عند المسلمين، ان لم نقل ان مانسبوه اليه من ذلك غير صحيح، فليس تعدد الزوجات هو الذي ولد في الشرق تلك الرذائل الفاضحة، بل المعقول انه من شأنه تلطيفها. على انني لست ادري ان كانت تلك الرذائل اكثر منها في الغرب، بل تلك وصمة الصقت بالاسلام بواسطة السواح الذين يرون امرا في فرد فيجعلونه عاما من غير تثبت فيه. ولولا هذا التعميم السطحي لما

وجدوا شيئا يملأون به مؤلفاتهم. والواقع ان الرذائل الفاضحة موجودة في كل امة ولقد يقع منها في باريس ولندن وبرلين اكثر مما يحدث في الشرق باجمعه لأن النبي صلى الله عليه وسلم بالغ في تحريمها ولم يعدها من الذنوب الخفيفة "[٧٣].

ثم هو يضع يده بعد هذا التعميم على احدى وسائل الدفع التي يعتمدها الاسلام للتحقق بالحشمة ومجابهة كل ما من شأنه ان يصيبها بالشروخ، وصيانة النظافة الاجتماعية. ان آيات القرآن الكريم تبين كما يلحظ كاستري " مقدار اهتمام الاسلام بمنع عوامل الفساد الناشئة عن التعشق بين المسلمين، لكي يجعل الازواج والآباء في راحة ونعيم.. ولقد اصبحت للمسلمين اخلاق مخصوصة عملا بما جاء في القرآن او في الحديث، وتولدت في نفوسهم ملكات الحشمة والوقار، وجاء هذا مغايرا لآداب الامم المتمدنة اليوم على خط مستقيم ومزيلا لما عساه كان يحدث عن ميل الشرقيين الى الشهوات لولا هذه التعاليم والفروض. والفرق بين الحشمة عند المسلم وبينها عند المسيحي كما بين السماء والارض "[٧٤].

والتعليق الاخير هو استنتاج على درجة كبيرة من الاهمية يلخص فيه كاستري، بل يحسم، المسالة كلها. وبمقدور اي مشاهد (محايد) للبيئتين الاسلامية والنصرانية (الغربية)، وبمجرد القاء نظرة على مايجري هنا وهناك ان يصل الى النتيجة نفسها حتى والبيئة المسماة تجوزا بالاسلامية لاتأخذ من قيم الاسلام وتعاليمه بصدد المرأة سوى تفاريق وجزيئات فكيف لو كان الالتزام جديا كما يريده الله ورسوله؟. كيف سيكون الفارق في الصورة بين البيئتين؟ أمن الضروري ان نشير هنا مجرد اشارة الى الضياع النهائي للحشمة، والامتهان المزري بكرامة المرأة، بما شهدته بريطانيا في الستينيات عندما اقر مجلس العموم باكثرية الاصوات شرعية الشذوذ الجنسي وزواج الرجال بالرجال، واباحته احدى الكنائس الانكليزية كممارسة مشروعة؟. وهل من الضروري - كذلك - ان

نشير، مجرد اشارة، الى ما تعكسه وسائل الاعلام والترفيه، ومعطيات الآداب والفنون، من تحلل جماعي تحولت معه المراة الى اداة للربح السريع، وفقدت احتشامها بالكلية، وتراجعت في سلم الرقي الحضاري الف خطوة الى الوراء بحيث ان اية مقارنة بين وضعها الراهن ووضعها في عصور الصيد واكتشاف النار ترجح الثانية على الاولى؟

****

ليست هذه الصفحات بطبيعة الحال مجالا يسمح للذهاب اكثر في هذا الميدان ولنرجع الى معطيات الغربيين وشهاداتهم ونتساءل مع اتيين دينيه " هل حقيقي ان الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجية، وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات؟ وهل يستطيع شخص ان يقول ذلك دون ان يأخذ منه الضحك مأخذه والا فهؤلاء مثلا ملوك فرنسا - دع عنك الافراد - الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم واكرام. ان تعداد الزوجات قانون طبيعي وسيبقى ما بقي العالم، ولذلك فان ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذي ارادته فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الاغراء بجميع انواعه.. ان نظرية التوحيد التي تأخذ بها المسيحية ظاهرا تنطوي تحتها سيئات متعددة ظهرت على الاخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء تلك هي الدعارة، والعوانس من النساء، والابناء غير الشرعيين. ان هذه الامراض الاجتماعية ذات السيئات الاخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الاسلامية تمام التطبيق وانما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية"[٧٥]. وهو يستشهد لتاكيد استنتاجه بهذه الواقعة ذات الدلالة التي تغني عن العديد من الشواهد. فلقد " جاء في كتاب (الاسلام) تاليف (شمتز دوملان) [٧٦]، انه (عندما غادر الدكتور مافروكور داتو الاستانة سنة ١٨٢٧ م

الى برلين لدراسة الطب لم يكن في العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة. كما لم يعرف فيها داء الزهري، وهو السفلس المعروف في الشرق بالداء الافرنكي. فلما عاد الدكتور بعد اربع سنين تبدل الحال، وفي ذلك يقول الصدر الاعظم الكبير رشيد باشا في حسرة موجعة: اننا نرسل ابناءنا الى اوربا ليتعلموا المدنية الافرنكية فيعودون الينا بالداء الافرنكي "[٧٧].

والآن فان ثمة ما يضاف الى الافرنكي، مرض الايدز الذي لا يرحم والذي هو، كما تؤكد المصادر والتحليلات الطبية الغربية المتخصصة، نتاج محتوم للشذوذ الجنسي والعلاقات غير المشروعة.. اي التبذل الذي يبلغ درجة التحقير الكامل للمرأة وامتهانها في اعز ما تملك بالتحول عنها الى الرجل نفسه لاشباع النزوات وتلبية نداء الشهوات.

ولكن عقاب اللّه الذي سبق وان ضرب قوم لوط ودمر عامورة وسدوم بالفعل نفسه، يعود اليوم لكي يدمر على الغربيين ومقلديهم في المعمورة كلها، بما هو اشد وانكى.

والمهم مرة اخرى، هو ان تجاوز التصاميم المعجزة التي رسمها الاسلام لدور المراة في الارض، والحدود الدقيقة التي خطها لحماية كرامتها، والمعالم العجيبة التي وضعها للتحقق بالنظافة والطهر اللائقين في الانسان في مجال العلاقة بين الرجل والمراة.. ان تجاوز هذا كله تمخض وسيتمخض عما هو اشد خزيا واكثر هولا. ول ديورانت يؤكد الدور نفسه الذي أكده الباحثون الذين مررنا بهم من قبل، بصدد تيسيرات الزواج وانعكاسها على الحشمة والنظافة الاخلاقية. فالمسلم " لايرى الامتناع عن اشباع الغريزة الجنسية حالا طبيعية او مثالية، وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وابناء. وحدود الزواج اوسع في الاسلام منها في كثير من الاديان، وتفتح الشريعة الاسلامية منافذ كثيرة لاشباع الغريزة الجنسية، ولهذا قل البغاء في ايام النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم).. "[٧٨].

وكذلك يفعل لايتنر عندما يشير الى انه " لاوجود للرهبانية في الاسلام " وانه يصعب في البيئة الاسلامية ان ترى " امرأة غير متزوجة " وبالتالي فانه " ليس في الاسلام محلات للفاجرات ولا قانون يبيح انتشار المومسات " بل ان مسامرات المسلمين خير مما هي في اوربا، ومسامرات شبان المسلمين في المدارس العمومية خير واطهر من مسامرات شبابنا.. والحق اولى ان يقال فان كثيرا من كلام شبان الانكليز لو قاله احد في بلاد المسلمين لنال قائله القصاص الصارم "(٧٩). طبعا فان هذا التحليل يمتد الى عقود بعيدة من الزمن، وإن لايتنر لو اتيح له اليوم ان يستمع الى مسامرات شبان المسلمين داخل المدرسة وخارجها لدهش - ربما - للانحلال الذي يسري اليها كالوباء قادما من الغرب مشجعا عليه من القيادات التربوية التي صنعها الغرب على عينه مخططا لها بعناية لكي يمضي الى هدفه فيدمر مابقي من قيم تحمي الحشمة وتصون النظافة في ديار المسلمين. ولم تعد اية عبارة تقال، مهما كانت ماجنة مرذولة، تلحق بصاحبها القصاص، كما كان لايتنر قد تحدث يوما. ومع ذلك فانه حتى هذا الذي تبقى للمسلمين في ديار المسلمين من حطام قيم والتزامات، كاف لوضع حد فارق بينهم وبين الغربيين. والمسالة لا تحتاج الى تبرير او جدل، مادامت واضحة مكشوفة في الميدان نفسه.. في صميم المنظور.

كوستاف لوبون يتحدث هو الآخر عن دور تيسيرات الزواج في تعزيز قيم الحشمة والنظافة في مجتمعات الاسلام، فهاهنا " حيث يسهل الزواج فيتزوج الرجال والنساء في ميعة الشباب، يدرك السر في امكان صرامة الطبائع باشد مما في اوربا. والحق ان الطبائع في الشرق صارمة وان من النادر ان ترى رجلا يتملق زوجة رجل آخر لمخالفة ذلك للطبيعة عند الشرقيين مع عده امرا طبيعيا لدى الاوربيين. فلاترى (في الشرق) مثل مايكدر صفو الحياة الزوجية في اوربة من الخيانة التي هي اعظم افسادا للاخلاق من تعدد الزوجات على ما

يحتمل.. وقد ثبت ان الخيانة الزوجية في الامم القائلة بالاقتصار على زوجة واحدة ، تزيد باطراد، ودلت الاحصائات الرسمية التي نشرت حديثا على ان عدد قضايا الزنا في فرنسا في سنة ١٨٨٠ اصبح تسعة امثال ما كان عليه في سنة ١٨٢٦ "[٨٠].

يواصل لوبون حديثه فيقدم المزيد من المفردات الا سلامية بهذا الخصوص.. ان المرأة في الشرق " تحاط برقابة شديدة، ولايزورها رجل، ولاتخرج من بيتها الا مبرقعة، واذا عدوت الاستانة وجدت النساء الشرقيات مصحوبات على العموم، ولا يتعرض احد لهن الانادرا، ولا نعجب كثيرا - اذن - من قول الشرقيين ان نساءهم افضل من الاوربيات"[٨١].

ويضيف احمد سوسة في تحليله للموضوع " حالة الحرب " التي تأكل الرجال وتجنح بالمعادلة صوب ماقد يخل باشباع واحدة من الحاجات الاساسية للمراة فيكون تعدد الزوجات درءا لما يمكن ان يتمخض عن حالة كهذه، وهكذا كفل التعدد " استبقاء النسل وهو امر حيوي لتأمين بقاء الرجال.. وعدا ذلك فقد صان المجتمع من تفشي البغي والفجور [٨٢]".

★★★★★★★★★★

وفي مقابل التيسيرات التي يمنحها الاسلام للتحقق بالاشباع وسد الذريعة للتحلل والفساد، يضع عددا من الضوابط والعقوبات الصارمة ازاء اية ممارسة من شأنها ان تلحق بالحشمة الاخلاقية والنظافة الاجتماعية اذى او سوءا ذلك " ان الحرية التي تمنحها الشريعة الاسلامية كلا من الرجل والمراة على حد سواء لعقد الزواج او حل هذا العقد " تفسر، كما يلحظ ليوبولد فايس (محمد اسد) " السبب الذي من اجله تعتبر هذه الشريعة الزنا من اقبح الآثام، ذلك ان تجاه هذا التسامح وهذه الحرية لايمكن ان يكون هناك ايما عذر للوقوع في حبائل العاطفة او الشهوة "[٨٣].

وهو نفس ما يلحظه جاك ريسلر في " ان تعدد الزوجات بتقييده الانزلاق مع الشهوات الجامحة قد حقق بهذا التشريع الاسلامي تماسك الاسرة، وفيه ما يسوغ عقوبة الزوج الزاني "(٨٤).

والآن، فاننا نريد ان نعرف بعض ماقالته الباحثات الغربيات عن المسألة التي هي بين ايدينا وهن - بطبيعة الحال - اكثر مقاربة لأي من الامور المرتبطة بالمرأة. تقول روز ماري هاو " الحجاب شيء اساسي في الدين الاسلامي لان الدين ممارسة عملية ايضا. والدين الاسلامي حدد لنا كل شيء، كاللباس والعلاقة بين الرجل والمراة. الحجاب يحافظ على كرامة المرأة ويحميها من نظرات الشهوة ويحافظ على كرامة المجتمع ويكف الفتنة بين افراده. لذلك فهو يحمي الجنسين من الانحراف. وانا اؤمن بان السترة ليست في الحجاب فحسب، بل يجب ان تكون العفة داخلية ايضا، وان تتحجب النفس عن كل ما هو سوء " (٨٥).

وهي بهذا تعرض المسالة من طرفيها التشريعي والتوجيهي، الخارجي والباطني، حيث يغدو الحجاب الاسلامي التزاما اخلاقيا ذاتيا، وتنفيذا لاوامر ومفردات تشريعية محددة في الوقت نفسه، وبهذا يكسب قوته الحقيقية.

وتوضح زيغريد هونكه مسالة غابت عن اذهان البعض وتعمد البعض الآخر ان تغيب عن الاذهان وهي ان الحجاب لايعني عزلة المراة في الزمن او المكان، لكنه التزام يستهدف صيانة كرامة المرأة من التبذل والامتهان، وحماية المجتمع من كل ما من شأنه ان يسوقه الى الفتنة والتشهي، وهو التزام يخص الرجل والمرأة على السواء (فالرسول صلى الله عليه وسلم) لم يأمر قط بحجب النساء عن المجتمع. لقد امر المؤمنين من الرجال والنساء على حد سواء بان يغضوا الطرف وان يحافظوا على اعراضهم وامر النساء بالا يظهرن محاسن اجسادهن الا في حضرة ازواجهن "(٨٦).

وهو الامر الذي تلحظه ماكلوسكي عندما تشير الى " ان الاسلام يحضنا نحن النساء على القيام بالعمل المثمر، شريطة ان نلتزم بالحشمة في جمالنا وان

نستر اجسادنا، وعلينا ان نكون جادين في حديثنا. وهكذا فالاسلام لايمنع المرأة من ممارسة اي عمل شريف يناسب طبيعتها.. "[٨٧].

وتلخص لورا فاكليري المسالة كلها بهذه العبارات: " اجتنابا للاغراء بسوء السلوك ودفعا لنتائجه يتعين على المراة المسلمة ان تتخذ حجابا، وان تستر جسدها كله، ما عدا تلك الاجزاء التي تعتبر حريتها ضرورة مطلقة كالعينين والقدمين. وليس هذا ناشئا عن قلة احترام للنساء، او ابتغاء كبت ارادتهن، ولكن لحمايتهن من شهوات الرجال.

وهذه القاعدة العريقة في القدم، القاضية بعزل النساء عن الرجال، والحياة الاخلاقية التي نشأت عنها، قد جعلتا تجارة البغاء المنظمة مجهولة بالكلية في البلدان الشرقية، الا حيثما كان للاجانب نفوذ او سلطان. واذا كان احد لايستطيع ان ينكر قيمة هذه المكاسب فيتعين علينا ان نستنتج ان عادة الحجاب.. كانت مصدر فائدة لاتثمن للمجتمع الاسلامي "[٨٨].

وتؤكد سالي مارش القيمة الاساسية التي تختتم بها فاكليري تحليلها وهي ان الحجاب، انما هو في نهاية الامر " لخير المجتمع الاسلامي بشكل عام " وبالتالي فان ما يتضمنه من قيود، على فرض اعتبارها قيودا، ليس الا " ضمانات لمصلحة المراة المسلمة نفسها ولخير الاسرة والحفاظ عليها متماسكة قوية.. " فضلا عن الخير الاجتماعي العام[٨٩]. وهي تجري مقارنة - سنرجع اليها كرة اخرى - بين الاسرة المسلمة وصنوتها الغربية، لكننا نلمح اليها هنا بقدر مايتعلق الامر بالدور الذي يلعبه الحجاب في وضع الاسرة وهو - بحق - دور خطير قد يتمناه ويهفو الى نتائجه وضماناته حتى الغربيون انفسهم رجالا ونساءا: " فلقد لاحظت - تقول مارش - ان المشكلات العائلية التي يعاني

منها الغرب لاوجود لها بين الاسر المسلمة التي تنعم بالسلام والهناء وكذلك الحب. فلا الزوج او زوجته في ظل الاسلام يعرفان شيئا عن موعد العشاق ومودة الصديقات السائدين هذه الايام في الاقطار غير الاسلامية. لقد احببت هذا الجانب من الحياة الاسلامية حبا كثيرا، لانه يمنح الزوج والزوجة والابناء ما لابد لهم من حب واخلاص وسلام يعمر حياتهم. وليس ذلك فحسب بل بفضل هذه العلاقات الزوجية بين المسلمين، هم واثقون من ان ابناءهم حقا من صلبهم غير دخلاء عليهم. وهذا مفقود في المجتمعات الاخرى "[٩٠].

وهذا سينقلنا - بالضرورة - الى قضية بناء الاسرة الاسلامية كما يراه عدد من الغربيين.

(٤)

الاسرة

ان ارتباط المراة المسلمة بالاسرة كمؤسسة اجتماعية معروف تماما، ويجب ان نتذكر ان هذا الارتباط لاينفي بشكل رياضي صارم قدرتها او حريتها في التحرك عبر المؤسسات الاخرى اذ ليست المسالة تتمثل ها هنا في عبارة: اما هذا او ذاك.. إما البيت وإما الشارع.. انما هي الاولويات التي تنبثق عن طبيعة المراة ووظيفتها الحيوية من جهة وعن مطالب وضرورات العقيدة التي عرفت كيف تضع كل مخلوق في مكانه المناسب تماما لانها من صنع الله سبحانه وهو ادرى بخلقه جل وعلا. ولقد كانت معطيات الواقع التاريخي، فضلا عن التحليلات الفكرية الصرفة، تتارجح دائما لكي ماتلبث ان تستقر عند حقيقة ان التوزيع الاسلامي للادوار البشرية على خارطة العالم والمجتمع، بما فيها دور المراة، هو التوزيع الاكثر انسجاما مع الخصائص البشرية كافة، والاقدر على منح الانسان، وفق موقعه المرسوم، القدرة على الابداع والعطاء والاحسان، فضلا عن التحقق بالسوية النفسية والاجتماعية والحصول - بالتالي - على الاستقرار والتوحد والسعادة التي ضيعتها او كادت رياح المذاهب والاهواء. وهكذا وبدون ما اي قدر من التشنج او القسر يتحتم على المرء ان يدرك ما الذي تعنيه عبارة ان مكان المراة الطبيعي هو (البيت).

المسلمون عموما فهموا جيدا هذا الشعار الاسلامي، ولم يروه الا في حالات استثنائية لايقاس عليها، تحجيما لدور المراة، او حجبا لحريتها، او منعا لها من التعبير عن طاقاتها في مجالات ومؤسسات اخرى خارج نطاق البيت.

الغربيون، ومقلدوهم من ابناء عالم الاسلام نفسه فهموا، او حاولوا ان يفهموا الامر على غير وجهه فقالوا فيه ماقالوا. ولكن بمواجهة هذا التيار المضلل، يبرز من بين الغربيين انفسهم، من تسوقه قناعاته الذاتية ورؤيته المقارنة، فضلا عن ضغوط الواقع ومعطيات التاريخ، الى ان يقول كلمة الحق، في هذه المسالة، ورغم عدم التوازن النسبي بين هذا التيار والتيار السابق الاكبر اتساعا، والاكثر صخبا وكدرا، الا اننا نستطيع ان نتلمس فيه ما يمكن ان يحدث مستقبلا عندما تتجلى الحقيقة اكثر فاكثر، فيتبين اكثر لكل ذي عينين معنى ان يكون البيت هو مركز الثقل في قضية المراة، وان تكون الاسرة هي المؤسسة التي تتمحور على هذا الكائن المتفرد في خصائصه وتركيبه ومكانته!

قبل لحظات مرت عبارات للامريكية المسلمة سالي جان مارش ترتبط بعدد من القيم الاساسية للاسرة المسلمة: السلام والهناء والاخلاص والمحبة التي تسود الاجواء في مقابل القلق والمشاكل المتجددة والتفكك الذي يحيق بالاسرة الغربية، وازاء اتخاذ الاخدان، اصدقاء وصديقات، او فلنسم الاشياء بمسمياتها، العشاق والعشيقات من قبل الزوج الغربي والزوجة الغربية، الامر الذي يتناقض - ابتداء - مع ضرورة التكوين الاسري القائم على فردانية العلاقة الجنسية والعاطفية والوجدانية بين الرجل والمراة، وعلى ان يجيء الابناء وهم يعرفون من هم آباؤهم على وجه التحديد " لقد احببت هذا الجانب من الحياة الاسلامية حبا كثيرا - تقول سالي - لانه يمنح الزوج والزوجة والابناء مالاغنى لهم عنه من الحب والاخلاص والسلام الذي يعمر حياتهم. وليس ذلك فحسب، بل بفضل هذا الاخلاص في العلاقات الزوجية بين المسلمين، هم واثقون ان ابناءهم هم حقا من صلبهم غير دخلاء عليهم، وهذا مفقود في المجتمعات الاخرى "[٩١].

تحاول فاكليري بكلمات قلائل ان تضع الامر في نصابه، مؤكدة على ثلاث: اولاها البعد البنائي لمؤسسة الاسرة الاسلامية، وثانيتها الاستقرار، وثالثتهما

الطابع الشمولي، المتوازن للممارسة الاسلامية وبضمنها الزواج بطبيعة الحال حيث ان " السنة الاسلامية لا تطالب، فيما يتصل به، باكثر من حياة امينة انشائية يسلك فيها المرء منتصف الطريق، متذكرا الله من ناحية، ومحترما حقوق الجسد والاسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية "[٩٢].

ويعترف مونتكمري وات بان " ماقام به محمد صلى الله عليه وسلم " في ميدان الزواج والعلاقات العائلية " يعد " تنظيما عميقا واسعا للبناء الاجتماعي "، واقامة " لبناء جديد " لم يكن مألوفا من قبل[٩٣].

ويمضي باحثون آخرون لتأكيد دور المراة في هذا البناء الجديد صحيح ان لها " ان تشتغل باية مهنة مشروعة " لكن " مكانها الصحيح " كما يقول جاك رسلر " هو البيت كما ان مهمتها الاساسية هي ان تنجب اطفالا وعلى ذلك رسم لها النبي (صلى الله عليه وسلم) واجبها.. "[٩٤]. وعلى المستوى التربوي فان تعليم البنات يقوم، منذ فترة مبكرة على " جعلهن صالحات للاعمال المنزلية " دون ان يحجب هذا تعليمهن الآداب والعلوم والفنون[٩٥].

وفي نفس الاتجاه تذهب ماكلو سكي " فالاسلام - كما تلحظ - لايمنع المراة من اي عمل شريف يناسب طبيعتها. الا ان اقدس واجب على المراة هو واجبها الطبيعي في خدمة اسرتها والعناية باعضائها، لان جزاءها هذا يعادل اجر المقاتلين في سبيل الله. والمراة المسلمة ما زالت تقوم بهذه الواجبات بكل اعتزاز "[٩٦].

وتلمح روز ماري هاو بعدا اختياريا في موقف المراة المسلمة بازاء الجبرية التي تعاني منها المراة الغربية فاذا كان واجبا على هذه " ان تعمل خارج بيتها لكسب العيش " فان المراة المسلمة " لها حق الاختيار، ومن حقها ان يقوم الرجل بكسب القوت لها ولبقية افراد الاسرة. فحين جعل الله سبحانه للرجال القوامة على النساء كان المقصود هنا ان على الرجل ان يعمل لكسب

قوته وقوت عائلته. فالمراة في الاسلام لها دور اهم واكبر من مجرد الوظيفة، وهو الانجاب وتربية الابناء، ومع ذلك فقد اعطى الاسلام المراة الحق في العمل اذا رغبت هي في ذلك، واذا اقتضت ظروفها ذلك "[97]. وهي تقدم للمؤسسة الاسرية الاسلامية صورة انسانية حميمة تسودها علاقات ذات طابع فريد: " انا افهم - تقول روز - ان الاسلام يعتبر الزوج اقرب صديق لزوجته، اذ تكن له كل ما في نفسها، لان الزواج في الاسلام علاقة مقدسة حميمة لا تضاهيها العلاقات العادية الاخرى "[98].

من اجل هذا يلحظ هنري دي كاستري ان " من الخطأ الفاضح والغلو الفادح قولهم ان عقد الزواج عند المسلمين عبارة عن عقد تباع فيه المراة فتصير شيئا مملوكا لزوجها، لان ذلك العقد يخول المراة حقوقا ادبية، وحقوقا مادية من شانها اعلاء منزلتها في الهيئة الاجتماعية "[99]. فالعلاقة بين القطبين - اذن - علاقة تكافؤية، والمراة فيها - اذا استخدمنا تعبير ايفلين كوبولد - " قسيمة الرجل " لها " من الحق ما له وعليها ماعليه، ولا فضل له عليها الا بما يقوم به من قوة الجلد وبسطة اليد واتساع الحيلة فيلي رياستها فهو لذلك وليها يحوطها بقوته ويذود عنها بدمه وينفق عليها من كسب يده، فاما فيما سوى ذلك فهما في السراء والضراء على السواء. ذلك ما اجمله الله بقوله تعالى (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) [100]. وهذه الدرجة هي الرعاية والحياطة لايتجاوزها الى قهر النفس وجحود الحق، وكما قرن الله سبحانه بينهما في شؤون الحياة، قرن بينهن في حسن التوبة وادخار الاجر وارتقاء الدرجات العليا في الدنيا والآخرة. واذا احتمل الرجل مشقات الحياة ومتاعب العمل، وتناثرت اوصاله، وتهدم جسمه في سبيل معاشه ومعاش زوجه، فليس ذلك بزائد مثقال حبة عن المراة اذا وفت لبيتها واخلصت لزوجها واحسنت القيام في شأن دارها "[101].

وهكذا، وكما تقول سالي مارش فانه حتى " على فرض وجود بعض القيود على المراة المسلمة في ظل الاسلام، فان هذه القيود ليست الاضمانات لمصلحة المراة المسلمة نفسها، ولخير الاسرة، والحفاظ عليها متماسكة قوية واخيرا فهي لخير المجتمع الاسلامي بشكل عام "(١٠٢).

ويقف نظمي لوقا عند مسالة الاسرة الاسلامية فيطيل الوقوف، مؤكدا القيم الانسانية ذاتها التي المح اليها الباحثون الذين مررنا ببعضهم، مسلطا عليها المزيد من الاضاءات، مبينا لكل ذي سمع وبصر وفؤاد انه ما من صيغة يتحقق فيها التكافؤ في العلاقة بدءا من اعماق النبض الوجداني، مرورا بمطالب الجسد والتزاما بالالتزامات المادية والشيئية، كالاسرة المسلمة.

ابتداءا.. وكمنطلق لحتمية التشكل الاسري في الاسلام يشير (لوقا) الى واحدة من البداهات النفسية والاجتماعية التي كادت تحجب عليها معطيات حضارة جانحة لم تعرف كيف تتعامل مع الانسان. انه " ما من امراة سوية تستغني عن كنف الرجل بحكم فطرتها الجسدية والنفسية على كل حال، وذلك حسب عقيدة جاءت لتكون صالحة لكل طور اجتماعي على تعاقب الاطوار والعصور، على سنة العدل التي لم يجد لها عصرنا اسما اوفق من (تكافؤ الفرص) الذي يلغي كل تفريق، ويسقط كل حجة،ويقضي على كل تميز، الا بامتياز ثابت صحيح "(١٠٣).

بعدها يمضي لوقا لكي يتحدث عن طبيعة العلاقة الزوجية في هذه الخلية الاسلامية الاساسية فهي " ليست مساقدة حيوانية بين ذكر وانثى، على اطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزي بين جنسي النوع البشري. لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة)(١٠٤). هكذا جاء في سورة الروم، واني لارى في قوله (من انفسكم)لمسة تمس شغاف القلب وتذكر بما

في الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس ثم اردف ذلك بالسكن، وما اقرب السكن في هذا الباب من سكينة النفس لا من مساكنة الاجساد! بدليل ما اردف ذلك من المودة والرحمة.. وتلك عليا مناعم المعاشرة الانسانية، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الاجساد ودفعات الرغبة العمياء. فالزواج مطلب نفسي وروحي عند الانسان، وليس مطلبا شهويا جسديا وان كان له اساس جسدي "(١٠٥).

ومن منظور اسلامي يحتضن الحياة ولايعاديها او يجافيها، ويوحد بين مكوناتها ولا يمزقها او يشتتها، ويستجيب لحاجاتها ومطالبها كافة، ولا يكبتها ولا يرجح بعضها على بعض.. من رغبة الاسلام الاصيلة المؤكدة لضرورة استمرارية الحياة، وتواصلها والتحقق باقصى درجات التناغم والانسجام بين اطرافها كافة.. من هذا كله تنبثق حتمية الاسرة كمؤسسة مركزية في نسيج هذا الدين " ان الاسلام - كما يقول لوقا — لا يقاوم الحياة بل يقر الفطرة البشرية على تقديسها، وصيانة ينابيعها من الاكدار، ولا يفصل بين حياة الروح وحياة الجسد حيث لا انفصال لهما في واقع الجبلة التي جبلها خالقها الحكيم الخبير. ان القرآن يكرر فضل الخالق وحكمته السامية في ابداع الجنسين، وكيف ان هذه سنة الله في خلقه كافة في جميع مراتب الحياة. والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد ان الزواج نصف الدين. انها الاستجابة للحياة في طلاقة وبراءة من التأثم، وتقديس لدوافعها، وورود طلق لينابيعها، مع الحفاظ عليها من اكدار البهيمية المسفهة. بذلك يسعد المرء من بني الانسان، وتترقرق في نفسه نظارة الثقة وافراح الحياة، ولا يجد حرجا بين ربه ونفسه. وربه قد خلقه على تلك الفطرة ولو شاء لجعله ملكا لا بدن له ولا شهوة "(١٠٦).

وبعد ان يجيل لوقا بصره، فيشهد ما فعلته المذاهب والاديان المحرفة بالانسان وبمطالبه الاساسية، يخلص الى القول بانه " كان لابد من اصلاح مابين الانسان

وبين ونفسه التي بين جنبيه بعقيدة موفقة بين الدين والدنيا وقد نهض بهذا الاسلام، وكانت سنته في الزواج كفاء خطته في جوانب الهداية البشرية الفطرية لتحرير البشر من الذعر والخزي وعقدة الاثم الشوهاء التي كبلته ولم تزل تكبل الكثيرين عن انطلاقة الحياة.. "(١٠٧).

ومهمة الاسرة الاساسية ووظيفتها الكبرى، بموازاة حشد من الوظائف الاخرى، هي المحافظة على استمرار النوع وارفاد الجماعات بالطاقات البشرية المتجددة التي تعينها ليس فقط على التواصل والديمومة، وانما على النمو والتمكن في ميادين القوة والتحضر.

والاسرة، كما هو معروف، هي المحضن الاول للطفولة التي تمثل هذا التوق للامتداد، وعلى كافة المستويات النفسية والوجدانية والاجتماعية والتربوية.

وحيثما كانت هندسة هذه المؤسسة اكثر دقة وضبطا، واعمق امنا واستقرارا اتيح للطفولة ان تتحقق بسويتها المطلوبة وان تمضي الى هدفها الذي المحنا اليه باقل قدر ممكن مكن الكسور والخسائر والعثرات.

ولن نطيل باكثر من هذا، ويكفي ان نشير الى مايقوله جاك ريسلر " كانت الاسرة الاسلامية ترعى دائما الطفل، وصحته وتربيته رعاية كبيرة. وترضع الام هذا الطفل زمنا طويلا، واحيانا لمدة اكثر من سنتين، وتقوم بتنشئته بحنان، وتغمره بحبها وباحتياطات متصلة واذا حدث ان اصاب الموت بعض الاسرة، واصبحوا يتامى، فان اقرباءهم المقربين لا يترددون في مساعدتهم وفي تبنيهم "(١٠٨) على ان ينسبوا لآبائهم الحقيقيين بطبيعة الحال.

وان نتذكر كذلك تلك الصورة الودودة الوضيئة التي يرسمها سيديو عن علاقة الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم بعالم الطفولة، والتي علمت ولاتزال اجيال المسلمين، قرنا بعد قرن، كيف تكون الصلة بين الآباء والامهات وبين البنين " لا شئ ادعى الى راحة النفس من عناية محمد صلى الله عليه وسلم

بالاولاد. فهو قد حرم (بأمر الله) عادة الوأد، وشغل باله بحال اليتامى على الدوام.. وكان يجد في ملاطفة صغار الاولاد اعظم لذة.

ومما حدث ذات يوم ان كان محمد صلى الله عليه وسلم يصلي فوثب الحسين بن علي (رضي الله عنهما) فوق ظهره فلم يبال بنظرات الحضور فانتظر صابرا الى حين نزوله كما اراد.

وما الطف اقوال محمد صلى الله عليه وسلم عن حنان الام وحب الوالدين، وما اجمل ما في كلمته (الجنة تحت اقدام الامهات) [١٠٩] فيمكن من ان يكتب فصل رائع من حياة محمد صلى الله عليه وسلم حول هذا الموضوع "[١١٠].

ولقد نظم رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاقة بين الآباء والامهات والابناء بما يصفه سيديو " الرفق الابوي الممزوج بلسان المشترع الوقور الجليل "[١١١].

وثمة من الغربيين من قدموا صورا مقارنة بين الاسرة المسلمة والاسرة خارج الاسلام. وتكسب هذه الصور قيمتها في انها تتجاوز بالمفردات الخاصة بالاسرة - احيانا - عالم التجريد القيمي، الى التجسيد المنظور في ساحة الواقع المعيش، فتمنح تاثيرا واقناعا اشد واعمق، ولذا سنتوقف عندها قليلا.

يرصد كوستاف لوبون نظرة الشرق المسلم الى الغرب في هذا السياق، فيجد كيف ان " الشرقيين ينظرون الى الاوربيين الذين يكرهون نساءهم ورجالهم على التجارة والصناعة والاشغال.. الى آخره، كما ننظر الى حصان اصيل يستخدمه صاحبه في جر عربة او ادارة حجر رحى، فيجب الايكون على المراة عند الشرقيين غير ادخال السرور الى قلب الرجل وتربية الاسرة، ولايرى الشرقيون ان المراة التي تزاول اعمالا اخرى، تستطيع ان تقوم بدورها هذا على الوجه اللائق"[١١٢]. وهو يلحظ - كذلك - كيف " ان رب الاسرة الشرقية لا يزال محافظا على سلطانه خلافا لما هو واقع في الغرب " وكيف " ان النساء الشرقيات لا يكلمن ازواجهن الا بادب " وان " الاولاد يقتدون بهن بطبيعة الحال " وكيف ان الشرقيين " لا يجدون فينا معشر الغربيين مايثير حسدهم من هذه الناحية "[١١٣].

وهو نفس مايذهب اليبه مستشرق فرنسي آخر هو اميل درمنغم الذي يبدأ بان ينفي ما يسميه " المزاعم الباطلة " التي تقول " ان المراة في الاسلام قد جردت من نفوذها زوجة واما " اسوة بالنصرانية التي " تلعن " المرأة وتعدها" مصدر الذنوب والاثام " وما يلبث " در منغم " لتأكيد تهافت هذه المزاعم، ان يدعو " الانسان ليطوف في الشرق ويرى ان الادب المنزلي فيه قوي متين، وان المراة فيه لاتحسد عاملاتنا في المصانع وعجائزنا " وان " العالم الاسلامي لم يكن ليجهل الحب المنزلي والحب الروحي " واننا " نحن الذين اخذنا عن الاسلام الفروسية والمثالية والحب العذري "(١١٤).

اما اتيين دينيه فانه يعلن بوضوح مستمد من دافع الخبرة والمعاناة " اننا نخشى ان تخرج المرأة الشرقية الى الحياة العصرية.. فينتابها الرعب لما تشهده لدى خروجها لدى اخواتها الغربيات اللائي يسعين للعيش وينافسن في ذلك الرجل، من امثلة الشقاء والبؤس الكثيرة "(١١٥).

وتعرض روزماري هاو الصورة نفسها، فانه " على عكس ما يظن الناس من ان المراة الغربية حصلت على حقوقها فانها لا تستطيع ان تمارس انسانيتها الكاملة وحقوقها مثل المراة المسلمة. فقد اصبح واجبا على المراة في الغرب ان تعمل خارج بيتها لكسب العيش، اما المراة المسلمة فلها حق الاختيار.. "(١١٦).

ويحسن ان نختتم هذا المقطع من البحث بتلك الصورة ذات البعد الانساني والتي يقدمها الصحفي الامريكي كاري واندر الذي انتهى به الامر الى الاسلام " من خلال معايشتي للمسلمين اكتشفت العلاقة الرائعة بين افراد الاسرة المسلمة، تعرفت كيف يعامل الآباء المسلمون ابناءهم، وعرفت العلاقة الوثيقة التي تربط افراد الاسرة المسلمة، كما أعجبت بالمكانة التي يتمتع بها كبار السن في الغرب. وفي بلادي: امريكا، قمة الحضارة الغربية المادية المعاصرة، يلقى بهم في مؤسسات العجزة، وينبذون فلايلتفت اليهم احد، اجد الجد والجدة المسلمين في مركز الاسرة وبؤرتها من حيث الحفاوة والتكريم. لقد احببت ذلك كثيرا.. "(١١٧).

(٥)

تعدد الزوجات

ولطالما اخذ الغربيون على التنظيم الاسري في الاسلام ما اعتبروه اثنين من المآخذ الاساسية: تعدد الزوجات والطلاق. وقالوا في هذا كثيرا وكتبوا كثيرا. ولكن، وبمرور الوقت، اخذ يتضح لهم او لبعضهم على الاقل، خطأ ما كانوا فيه ويتبين تهافت استنتاجهم بهذا الخصوص، وان المسألة على العكس تماما.. فهاتان الممارستان انما هما: اداتان ضروريتان، او بعبارة اخرى، صماما امان للحياة الاسرية اذا اريد لها ان تقوم على اساس ثابت متين لا تزعزعه الاهواء والضرورات، ولا تهزه الحالات الاستثنائية التي لا يمكن ان تخلو منها حياة اية جماعة من الجماعات البشرية، ولا يجد الازواج والزوجات فيه انفسهم مضطرين، وقد سدت الابواب، ان يخرجوا او يدخلوا من النوافذ لكي يختانوا انفسهم، ولا يكون الاطفال فيه عرضة للنزوات والاهواء، حيث لا يضمن هؤلاء لأنفسهم - احيانا -حقهم في الرعاية والحنان، ولا يعرفون - احيانا اخرى - من هم آباؤهم على وجه اليقين!

وهكذا عاد الغربيون لكي يقولوا هذه المرة شيئا نقيضا تماما لما كان رفاقهم او اسلافهم قد قالوه والحوا في القول. ولنبدأ بمسألة تعدد الزوجات ثم نعرج على الطلاق.

****

ان تحليل مارسيل بوازار للموضوع قد يلخص القول كله بهذه الكلمات " ان القانون في الاسلام يصبو الى التشريع بطريقة واقعية وغير مثالية آخذا بعين

الاعتبار طبيعة الانسان الحقيقية. والاسلام يفرض الحشمة وهي لاتتحقق على صعيد الجنس، الا في الزواج. ومن (هذا المنظور) أقر الاسلام تعدد الزوجات والطلاق. ولم يكن هو بالطبع الذي اتى بهما لانهما وجدا في جميع الحضارات... لكنه ضيق نطاق مشروعيتهما.. ان تعدد الزوجات مباح لكن الاقتصار بامانة على زوجة واحدة يبقى الغاية المراد بلوغها. انه يظل مثلا اعلى.. وربما غير متلائم مع طبيعة الرجل الحقيقية. فقد يكفل تعدد الزوجات الشرعي حياة عائلية اكثر احتشاما من التي يؤمنها اقتصار غير متقيد على زوجة واحدة، ويشتمل بشكل طبيعي على الخيانة الزوجية والدنس والكذب، ويقود الى اكراه بعض النساء على البقاء عزبات كما يؤدي الى ان يحرم عدد كبير من الازواج والاولاد "(١١٨).

فالمسألة - اذن - ليس ابتكارا اسلاميا صرفا فلقد سبقته فيه اديان وحضارات، وانما سعى الاسلام - كعادته - الى ان يضبط وينظم، وربما يحدد، اذا اقتضى الامر. ثم ان الاسلام، تمشيا مع واقعيته ، يفترض ان تكون هناك (حالات) تتطلب تعددا في الزوجات، كما قد تتطلب طلاقا (الامر الذي سنعرض له بعد قليل). والاسلام - من جهة ثالثة - يسد الابواب والذرائع على كل ما من شأنه ان يقود الارتباط الاحادي المؤبد بين الزوجين الى افساد الحياة الزوجية عن طريق البحث عن الابواب الخلفية للاشباع، والتعويض، وربما الهروب من السجن المؤبد الذي لم يأذن به الله ورسله وفطرة الانسان.

هذه كلها يؤشر عليها بوازار بالايجاز المطلوب، وهي بحد ذاتها كافية لمنح القناعة بحتمية هذا التشريع الاسلامي، لكنه يمضي ليشير الى قناعة اخرى. " ان الشريعة الاسلامية لاتكتفي بتحديد عدد من الزيجات التي تتم في وقت واحد، بل تفرض كذلك بالمقابل شرطا جازما بمعاملة اولئك الزوجات بطريقة عادلة عدلا مطلقا. والرجل الذي لا يملك القدرة على معاملة عدة نساء

بالتساوي على الصعيدين المادي والعاطفي في آن واحد، لا يتزوج سوى واحدة... "(١١٩).

فالتشريع الاسلامي الذي تنطوي كل معطياته على صيغة مركبة من التوجيه والتقنين، تتضمن في الوقت نفسه تركيبا متنوع مواز آخر: الحرية والتحديد، او بعبارة اخرى، الاباحة المشروطة التي تحقق التوازن بين الصرامة والمرونة. ونحن نعرف جميعا انه ما من مذهب او دين منحرف، الا وجد نفسه، بعد وقت يطول ويقصر، مسوقا باتجاه احدى اثنتين: القسرية الصماء، او التسيب الذي لا يضبطه حد.

والتحقق بالمعادلة المطلوبة تشريعا وتنفيذا، صعب، وصعب - كذلك - ان يدرك كثيرا ممن الفوا الجنوح بهذا الاتجاه او ذاك، كيف وضع الاسلام، هذا التصميم الالهي المعجز، مسألة الارتباطات الزوجية، كما هو الحال مع تصاميمه في سائر مناحي الحياة، موضعها الحق.

فها هنا، وكما يلحظ بوازار، وغيره كثيرون ممن سنمر على بعضهم، كيف ان تعدد الزوجات مباح، ولكنه - وفي الوقت نفسه - مشروط بالعدل في سائر منحنياته ومفرداته، تماما كما هو مشروط ابتداءا بالتحديد العددي الذي لا يتجاوز الاربع بأية حال من الاحوال.

وهكذا تتوالى اقوال الغربيين في مسألة تعدد الزوجات من هذه المرتكزات الاساسية التي المح اليها بوازار. ونستمع الى اميل در منغم - مثلا - وهو يقول " لقد اباح محمد صلى الله عليه وسلم تعدد الزوجات.. ولم يوص الناس به، ولم يأذن فيه الا بشرط العدل بين الزوجات، فلا يهب احداهن ابرة دون الاخرى.. وليس مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة من الحقوق الطبيعية مع ذلك، ولم يعرضه كتاب العهد القديم على الآباء، واذا كان هذا المبدأ قد اصبح سنة في النصرانية فذلك لسابق انتشاره في بلاد الغرب، وذلك من غير ان يحمله

رعايا (نيرون) الى بلاد ابراهيم ويعقوب (عليهما السلام).. وايهما افضل تعدد الزوجات الشرعي ام تعدد الزوجات السري؟ ... ان تعدد الزوجات من شأنه الغاء البغاء والقضاء على عزوبة النساء ذات المخاطر "[١٢٠].

وانه لتعبير مثير ودقيق ذلك الذي يصوغه درمنغم مستمدا تكوينه من الواقع الغربي نفسه، والذي نعرفه جميعا من خلال ما قرأنا وشاهدنا: " تعدد الزوجات السري ". فالاسلام الذي يعرف الطبيعة البشرية تماما، لأنها من صنع الله سبحانه، والذي يعرف كيف يتعامل مع هذه الطبيعة، يرسم لها مجالا للحركة، ويفتح امامها المنافذ والمسارب لكي تتحقق بالارتواء والاشباع، ولكي تعبر عن قدراتها الكامنة.. يفتحها في الهواء الطلق تماما وعلى المكشوف: تحت الشمس والضوء، فتكون الممارسات جميعا متمتعة بالصحة والعافية، ملفوحة بالهواء النقي، مطهرة بحرارة الشمس على العكس تماما مما يحدث في البيئات الاخرى حيث تكون الممارسة اخت الظلمة، قرينة العنف والاختناق والفساد!!

لقد " بالغ الناس كثيرا في مضار تعدد الزوجات عند المسلمين، ان لم نقل - والحديث لهنري ديب كاستري هذه المرة - ان مانسبوه اليه من ذلك غير صحيح. فما تعدد الزوجات هو الذي ولد في الشرق تلك الرذائل الفاضحة، بل المعقول ان من شأنه تلطيفها، على انني لست ادري ان كانت تلك الرذائل اكثر منها في الغرب بل تلك وصمة الصقت بالاسلام بواسطة السواح الذين يرون امرا في فرد فيجعلونه عاما من غير تثبت فيه، ولو لا هذا التعميم السطحي لما وجدوا شيئا يملأون به مؤلفاتهم. والواقع ان الرذائل الفاضحة موجودة في كل امة ولقد يقع منها في باريس ولندن وبرلين اكثر مما يحدث في الشرق اجمعه لأن النبي صلى الله عليه وسلم بالغ في تحريمها ولم يعدها من الذنوب الخفيفة "[١٢١].

ثم ان كاستري بعد ملاحظته المقارنة هذه يشير الى " التحديد " الذي سبق واشار اليه بوازار، حيث كانت المسألة قبل الاسلام امرا سائبا[١٢٢]. أما دينيه

فانه يتحدث هو الآخر، عن تناغم الاسلام مع ما يسميه " الطبيعة التي لا تغلب "، انه " لا يتمرد عليها " ولكنه " يساير قوانينها ويزامل ازمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شؤون الحياة، مثل ذلك الفرض الذي تفرضه على ابنائها الذين يتخذون الرهبنة، فهم لا يتزوجون وانما يعيشون غرباء، على ان الاسلام لا يكفيه ان يساير الطبيعة وان لا يتمرد عليها وانما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها اكثر قبولا واسهل تطبيقا في اصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور. حتى لقد سمي القرآن لذلك " بالهدى " لانه المرشد الى اقوم مسالك الحياة.. والامثلة العديدة لا تعوزنا، ولكنا نأخذ باشهرها وهو التساهل في سبيل تعداد الزوجات.. فمما لا شك فيه ان التوحيد في الزوجة هو المثل الاعلى، ولكن ما العمل وهذا العمل يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق، بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه. لم يكن للاسلام امام الامر الواقع، وهو دين اليسر، الا ان يستبين اقرب انواع العلاج فلايحكم فيه حكما قاطعا ولايأمر به امرا باتا "[١٢٣]. ويتساءل دينيه " هل حقيقي ان الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة، وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات؟ " ثم يكون جوابه سؤالا استنكاريا ساخرا: " فهل يستطيع شخص ان يقول ذلك دون ان يأخذ منه الضحك مأخذه؟ والا فهؤلاء مثلا ملوك فرنسا - دع عنك الافراد - الذين كانت لهم الزوجات المتعددة والنساء الكثيرات وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم واكرام. ان تعداد الزوجات قانون طبيعي، وسيبقى مابقي العالم، ولذلك فان ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذي ارادته فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الاغراء بجميع انواعه.. ان نظرية التوحيد في الزوجة التي تأخذ بها المسيحية ظاهرا تنطوي تحت سيئات متعددة ظهرت على الاخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء، تلك هي الدعارة، والعوانس من النساء، والابناء

غير الشرعيين. ان هذه الامراض الاجتماعية ذات السيئات الاخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الاسلامية تمام التطبيق وانما ادخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية "[١٢٤].

ويعود دينيه في كتاب آخر لكي يقارن ثانية بين عالمي الاسلام والنصرانية فلقد " لاحظ جميع الرحالة الغربيين.. ان تعدد الزوجات عند المسلمين، وهم يعترفون بهذا المبدأ، اقل انتشارا منه عند المسيحين الذين يزعمون انهم يحرمون الزواج باكثر من واحدة. وليس ذلك بالامر الغريب على الفطرة البشرية، فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدأهم في هذا "[١٢٥].

ويلحظ جاك ريسلر " ان تعدد الزوجات، بتقييده الانزلاق مع الشهوات الجامحة، قد حقق بهذا التشريع الاسلامي تماسك الاسرة، وفيه مايسوغ عقوبة الزوج الزاني "[١٢٦]. وهو استنتاج مناقض تماما لما كان الغربيون، من قبل قد ادانوا به مبدأ التعدد من حيث انه معول هدم في كيان الاسرة!

بالعكس، فان هذا المبدأ جاء بمثابة فرصة مناسبة للمراة تماما، ذلك " ان الفكرة الرائدة في القرآن - كما يؤكد مونتكمري وات - هي انه اذا تبنى المسلمون تعدد الزوجات، فان جميع الفتيات اللواتي هن في سن الزواج، يمكنهن الزواج بصورة حسنة "[١٢٧]. ومرة اخرى " فان تعدد الزوجات يسمح للنساء الكثيرات بالزواج الشريف "[١٢٨]، ما دام ان الظروف التاريخية تجنح، معظم الاحيان، بالتوازن العددي بين الرجال والنساء، فتجعل الرجال اقل عددا من النساء. ويمضي وات لكي يؤشر على مزايا اخرى، فان التعدد " يضع حدا لاضطهاد الارامل اللواتي تحت الوصاية، كما يخفف من اغراء الزواج المؤقت الذي يسمح به مجتمع عربي ذي عوائد امية (جاهلية)... " ولذلك كله " يجب اعتبار هذا الاصلاح، بالنظر لبعض العادات السائدة آنذاك، تقدما مهما في تنظيم المجتمع[١٢٩].

وقد يخطر على بال البعض، لسبب او آخر، سؤال ساذج كهذا: لماذا تعدد الزوجات فقط، وليس تعدد الازواج؟! والجواب واضح طبعا، لكننا اذ نستنطق الغربيين انفسهم، نريد ان نعرف ها هنا ايضا ما الذي يقولون.

ان ليوبولد فايس ومن خلال النظرة الشمولية التي هي خصيصة اساسية في الاسلام، يلحظ كيف ان " الشريعة الاسلامية، بمقتضى الحكمة التي تأخذ الطبيعة البشرية بعين الاعتبار الكلي دائما، لا تأخذ على عاتقها اكثر من صيانة الوظيفة الاجتماعية - البيولوجية للزواج (بما فيها ايضا العناية بالنساء ايضا) فتسمح للرجل بان يتخذ لنفسه اكثر من زوجة واحدة، ولا تسمح للمراة بان تتخذ لنفسها اكثر من زوج واحد في الوقت نفسه، في حين انها تترك للشريكين مسألة الزواج الروحية التي لا يمكن ان تقاس، وبالتالي تقع خارج دائرة الشريعة. فمتى كان الحب تاما كاملا فعندئذ تنعدم الرغبة عند كل منهما في الزواج ثانية، ومتى كان الزوج لايحب زوجته من كل قلبه، ولايرغب مع ذلك في فقدها، فان بامكانه ان يتزوج باخرى.. "(١٣٠).

يعود كارودي لكي يؤكد ان التعدد الذي اقره الاسلام " كان موجودا من قبل، وانه موجود كذلك في التوراة والاناجيل " انما فرض عليه الاسلام، على العكس " حدودا مثل العدل التام بين مختلف الزوجات في الانفاق والمحبة والمعاشرة الجنسية، وهي قواعد اذا ما جرى تطبيقها بحرفيتها تجعل تعدد الزوجات مستحيلا "(١٣١).

وثمة ما يجب ان نلاحظه ها هنا وهو ان معظم الباحثين الاسلاميين يميلون الى التحذير من هذا الالحاح على استحالة التعدد في حالة انعدام العدل التام الذي يصعب تنفيذه كليا، لان هذا الالحاح الذي يقود الى التخويف من التعدد يمثل في نهاية الامر احدى اثنتين: الانسياق وراء منطوق التوحد الزوجي الذي يعمل به الغربيون والذي نتج عنه ما نتج، او الهزيمة النفسية ازاء التقليد الغربي رغم ما يتضمنه من تناقضات واخطاء.

مهما يكن من امر، فاننا بمتابعتنا لمعطيات الغربيين أنفسهم، سنضيق الخناق على هذا التوجس، حيث تتبدى اكثر فاكثر مزايا التعدد وانعكاساته الايجابية في مجرى الحياة.

يؤكد كويليام ماأشار اليه كارودي من قبل، من ان تعدد الزوجات ليس امرا جديدا في الاسلام " فان موسى (عليه السلام) لم يحرمه، وداود (عليه السلام) اتاه وقال به " وانه " لم يحرم في العهد الجديد (الانجيل) الا من عهد غير بعيد ". كما يؤكد ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) " اوقف الغلو فيه عند حد معلوم " ثم يمضي إلى القول بان واقع الحياة الاسلامية لايعكس بالضرورة هذا التعدد الا في حالات معينة، وان هذا المبدأ " بكل ما قيل فيه من القول الهراء لايخلو من الفائدة فقد ساعد على حفظ حياة المراة واوجد لها في الشريعة حسن المساعدة ". وهو يقارن بين تعدد الزوجات في البلاد الاسلامية وبين " الخبائث التي ترتكبها الامم المسيحية تحت ستار المدنية.. فلنخرج الخشبة التي في اعيننا اولا ومن ثم نتقدم الى لأخراج القذى من اعين غيرنا! "[١٣٢]. وكويليام، هنا، يذكرنا بما يجري في اوربا التي " تحصر الزواج في امرأة واحدة اذعانا للقانون " ولكنها " تتخذ عدة ازواج اخرى (غير شرعيات) من وراء الجدار "[١٣٣].

ويكاد يكون كوستاف لوبون من اكثر الغربيين الذين تحدثوا عن هذا الجانب من التنظيم الاسري في الاسلام، مقارنا بما عليه الحال في الحياة الغربية، ولذا سنقف عنده بعض الوقت.

يبدأ لوبون بطرح رجائه في " ان يثبت عند القاريء، بعد ان يطرح عنه الاوهام الاوربية جانبا، ان مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الاخلاقي عند الامم التي تقول به، ويزيد الاسرة ارتباطا، ويمنح المرأة احتراما وسعادة لاتراهما في اوربا.. " ثم يعرج على اثنتين من الدوافع الاساسية التي تجعل تشريعا كهذا امراً لازما: التأثير البيئي، بما فيه ضغوط المناخ، والتركيب الجثماني للمرأة

" فان تأثير الجو والعرق (في بلاد الشرق) من الوضوح بحيث لايحتاج الى ايضاح كبير. وبما ان تركيب المراة الجثماني وأمومتها وامراضها.. الى آخره مما يكرهها على الابتعاد عن زوجها في الغالب، وبما ان التأيم الموقت مما يتعذر في جو الشرق، ولا يلائم مزاج الشرقيين، كان مبدأ تعدد الزوجات ضربة لازب ". ثم هو يقارن، اسوة بالعديد من الباحثين، بين هذا المبدأ الشرعي المعلن وبين " مبدأ تعدد الزوجات السري عند الاوربيين " فيرى، على العكس تماما مما يراه الغربيون كيف ان " مبدأ التعدد أسنى منه، وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم ونظرهم الى هذا الاحتجاج شزراً "[١٣٤]. ذلك بانه "ثبت ان الخيانة الزوجية في الامم القائلة بالاقتصار على زوجة واحدة، تزيد باطراد، ودلت الاحصاءات الرسمية التي نشرت حديثا على ان عدد قضايا الزنا في فرنسا في سنة ١٨٨٠ م اصبح تسعة امثال ما كان عليه في سنة ١٨٢٦"[١٣٥]. فماذا لو اتيح للمرء ان يتابع الاحصاءات الرسمية لأواخر هذا القرن الذي نعيشه، اي بعد مرور ما يزيد عن القرن على الرقم الذي اشار اليه لوبون؟

وثمة غير هاتين، ضرورات اخرى يضع لوبون يده عليها الامر الذي يزيد المرء اعجابا بهذا الدين الذي لم يترك حالة بيئية او نفسية او حيوية او اجتماعية او - حتى - تأريخية، الا وضع لها ماينا سبها تماما. فهنالك ايضا البيئة الزراعية التي تحتاج الى مزيد من الايدي، وهناك كراهة العقم لدى الشرقيين بخاصة، والطمع بزيادة الابناء: " ان اكثر الاوربيين تدينا اضطروا الى الاعتراف بضرورة تعدد الزوجات حينما انعموا النظر في الشعوب التي ظهر فيها هذا المبدأ.. تلك هي الضرورة التي تدفع ارباب الاسر الزراعية في الشرق الى زيادة نسائهم وكون النساء في هذه الاسر هن اللائي يحرضن ازواجهن على البناء بزوجات أخر من غير ان يتوجعن.. هذا الى حب الشرقيين للذرية، فالعقم عندهم من اعظم مايصاب به انسان، والشرقي اذا ما رزق بضعة اولاد طمع في

زيادة عددهم وتزوج بنساء أخر وصولا الى هذا الغرض "[١٣٦] هنالك فضلا عن هذا كله ضرورة تاصيل الانساب.. ان يعرف الابناء على وجه اليقين والتحديد من هم آباؤهم، وهكذا يتضح " ان تعدد الزوجات المشروع عند الشرقيين احسن من تعدد الزوجات الريائي عند الاوربيين وما يتبعه من مواكب اولاد غير شرعيين "[١٣٧].

يبقى ان نشير الى مايسميه لوبون " الاعتراض الوحيد الظاهر الذي يوجه الى تعدد الزوجات، وهو ان يجعل المرأة تعسة " فهذا الوهم مردود هو الآخر فلقد " اجمع على فساد هذا الزعم الذي طال امده جميع الاوربيين الذين درسوا امره عن كثب "[١٣٨]. وهو تفنيد مستمد من واقع التجربة المعيشة لا من بطون الكتب وتقابل الافكار.

والنتيجة التي يخلص اليها لوبون بعد هذا كله هو رجاء آخر يطمع فيه " ان يعتقد القاريء، بعد وقوفه على ماتقدم، ان مبدأ تعدد الزوجات امر طيب وان حب الاسرة، وحسن الادب، وجميل الطبائع، اكثر نموا في الامم القائلة به مما في غيرها على العموم"[١٣٩].

****

احمد سوسة، اليهودي العراقي الذي انتمى الى الاسلام، ونظمي لوقا القبطي الذي كتب عن الاسلام ورسوله (صلى الله عليه وسلم) باخلاص وموضوعية لم يعرفهما كثير من المسلمين انفسهم، يتحدثان عن المسالة نفسها: تعدد الزوجات.

فاما احمد سوسة فانه يبدأ بالاشارة الى ان التعدد يمثل استجابة حكيمة " للزمن والظروف التي ظهر فيها الاسلام " وان الله سبحانه " قد جعل ذلك عند حدود وجاءت تعاليمه حافلة بتحفظات واحتياطات " وان " مرونة الشريعة الاسلامية " تتجلى بكونها تجابه كل الحالات فتحبذ امرا ما في ظرف معين ولكنها قد " تكرهه " في ظرف آخر[١٤٠].

وهو يستعرض عددا من الحالات التي يكون فيها التعدد " امرا محبذا وان لم يكن ضروريا " او ملزما بعبارة اخرى، كحالات الحرب، والاوبئة، والثورات التي كانت تحصد الكثير من الرجال، وتجنح بالمعادلة السوية عن سويتها " لذا فقد امنت اباحة تعدد الزوجات اعالة الارامل من النساء مع اطفالهن، كما انها كفلت استبقاء الجنس، وهو امر حيوي لتأمين بقاء الرجال.. وعدا ذلك فقد صانت الرجال من تفشي البغي والفجور "(١٤١). ثم يخلص الى القول بان الصيغة الاحتمالية للتعدد كما رسمها الاسلام " تدل على ان الاسلام هو دين ابدي قد انزل لكل وقت ومكان.. "، فنحن - مثلا - في القرن الراهن، ومن خلال المتغيرات التي اثرت في حياة معظم الجماعات الاسلامية، نجد كيف انخفضت نسبة التعدد في البيئة الاسلامية بحيث انها لم تعد تذكر الى جانب الزواج المنفرد(١٤٢). وبالمقابل فانه قد تستجد في اي زمن او مكان ظروف ربما يكون معها التعدد امرا محتوما.. ويكون الاسلام - بالتالي - قديرا على تغطية الحاجة والاستجابة لها وفق اشد الصيغ تحقيقا للرفاه والسعادة والاستقرار على المستويين الفردي والاجتماعي على السواء.. ذلك انه، كما يقول سوسه " دين ابدي قد نزل لكل وقت ومكان ".

وأما نظمي لوقا فانه ينطلق من المقارنة التي سبق وان المح اليها العديد من الباحثين الغربيين الذين مررنا ببعضهم، فما ثمة " من عاقل يفضل تعدد الزوجات بغير رخصة " وفق الطريقة الغربية " على التعدد برخصة " وفق الطريقة الاسلامية، ذلك " ان اثر الشعور بالاثم والاختلاس على السلوك البشري بعامة اثرخبيث يسمم حلاوته ويعكر صفاءه الذي لاتتقوم السعادة الزوجية والنفسية بغيره، فضلا عما في العلاقات المختلسة من أضرار بالمرأة، وافساد لحياتها.. " هذا على المستوى النفسي، اما على المستوى الاجتماعي، فثمة ظروف واحوال يكون معها هو الحل المناسب، بل هو الحل الوحيد، اذا

توخينا الدقة في التعبير، فهي " اذن رخصة تستخدم بحقها وعند حصول مسوغاتها الطبيعية من احوال البيئة او من احوال الفرد ". ومايلبث لوقا ان يطرح عددا من " الحالات " الخاصة يغدو معها التعدد امرا محتوما، فهو يتساءل: " ما القول في زوجة اقعدها المرض؟ او الزوجة العقيم؟ اوالفاترة؟ او السقيمة الاعصاب؟ اطلاقها ارحم بها ام اردافها بزوجة اخرى؟ " ثم يجيب بان الامر واضح ولا شك " فهي اذن (مرة اخرى) رخصة تستخدم بحقها، ولكنها ليست الزاما "(١٤٣).

ونريد ان نعرف - كذلك - ماتقوله المراة الغربية في هذا الموضوع وسنكتفي بثلاث منهن فحسب.

تؤكد فاكليري الايطالية " انه لم يقم الدليل حتى الآن، باي طريقة مطلقة، على ان تعدد الزوجات هو بالضرورة شر اجتماعي وعقبة في طريق التقدم " ولكنها تؤثر - كما تقول - الا تناقش المسألة على هذا الصعيد، انما تمضي لكي تؤكد " انه في بعض مراحل التطور الاجتماعي، عندما تنشأ احوال خاصة بعينها، كأن يقتل عدد من الذكور ضخم الى حد استثنائي في الحرب مثلا، يصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية "، وهي تذكر " بان الشريعة الاسلامية التي تبدو اليوم وكانها حافلة بضروب التساهل في هذا الموضوع، انما قيدت تعدد الزوجات بقيود معينة، وكان هذا التعدد حرا قبل الاسلام، مطلقا من كل قيد. لقد شجب الاسلام بعض اشكال الزواج المشروط والمؤقت التي كانت في الواقع اشكالا مختلفة للتسري الشرعي (اي المعاشرة من غير زواج).. "(١٤٤)، الامر الذي يذكرنا بالتعدد على الطريقة الغربية. وماتلبث فاكليري ان تقف عند واحدة من اهم شروط التعدد الاسلامي الا وهو العدل: " العدل الكامل نحو كل زوجة.. لا مجرد المعاملة المتساوية في الزاد المادي بل الحب المتساوي ايضاً.. وثمة آيات توضح ان الطبيعة البشرية تجعل مثل روح المساواة هذه شيئا نادرا جدا في الانسان "(١٤٥).

وتنقل الانكليزية ايفلين كوبولد عن المستر بيكتول، الكاتب الانكليزي المسلم قوله (بان على المرء ان ينظر الى تعدد الزوجات في الاسلام نظرة حق وعدل خصوصا وانه يقرر للمرأة مركزا تحاول المدنية الغربية اغفاله. ذلك ان الزواج الواحد لم يكن في وقت من الاوقات امرا واقعا في اوربا، وبسببه نرى نساءا كثيرات ترمى في الازقة ويرفض الاعتراف بهن بسبب هذه العقيدة التي ليس هناك من يحافظ عليها، فالاسلام والحالة هذه يضع حدا لهذه الظاهرة البغيضة، ويسمح للمراة التي تتعلق بشخص متزوج ان تعيش عيشة شريفة محترمة) [١٤٦].

اما الباحثة الالمانية زيكريد هونكه فتشير الى الضرورات التاريخية والاجتماعية التي تجعل من تعدد الزوجات امرا ملحا. لقد كان المبدأ معمولا به قبل الاسلام " وبظهور الحركة استمرت تلك الضرورة نتيجة لبدء الفتوح، والواقع ان الفكرة اثبتت نجاحا كبيرا.. "[١٤٧]. ولاتنسى هونكه ان تشير الى شرط العدل الاجتماعي ازاء الزوجتين او الثلاث او الاربع، وهو بالزامه وجديته يحد، كما تلحظ، من ظاهرة التعدد هذه[١٤٨].

وان كان علينا اذا اردنا ان نكون واقعيين، كما علمنا الاسلام، الا نبالغ في اعتبار العدل عائقا موضوعا عن عمد للحد من التعدد!

(٦)

الطلاق

اما المأخذ الغربي الثاني على وضع المرأة والتنظيم الاسري في الاسلام فهو اباحة الطلاق!

وها هنا نسمعهم يقولون غير ما قالوه بالامس، ونلحظ كيف ان صوت النقد والتبرم والاحتجاج بدأ يضعف ويخفت ويغيب بمواجهة صوت آخر آخذ بالارتفاع والتصادي، يقر فكرة الطلاق ويدعو لها، ويؤكد كونها مفتاح امان وليس تفريطا بالحياة الاسرية، وضرورة لابد من الاعتراف بثقلها والزامها في مواجهة تحديات الحياة ومتغيراتها، والطبقات المعقدة المتشابكة بين الرجل والمراة داخل المؤسسة الاسرية الاجتماعية عموما والتي لايمكنها بحال ان تخضع للمسطرة والبرجال.

وهل ثمة اكثر ارتفاعا من اصوات الاكثرية الساحقة في البرلمان الايطالي التي صوتت في ستينيات هذا القرن لصالح اقرار الطلاق والغاء تحريمه، بعد كفاح مرير، وهم على بعد خطوات فحسب من جدار عاصمة الكاثوليكية في العالم: الفاتيكان الذي وقف ولا يزال، كجدار اصم بمواجهة محاولات الاباحة هذه؟

ما الذي يقوله الغربيون، وغير المسلمين اليوم؟

ان واحدا من احدث الكتب عن الاسلام للمفكر ورجل القانون الفرنسي مارسيل بوازار يؤكد بوضوح مايسميه " الروح العلمي الذي يهيمن على الشروط الاسلامية الخاصة بالطلاق ". فها هنا ايضا كما هو الحال في جوانب الحياة كافة " يرفض المفهوم الاسلامي ان يعترف للطبيعة البشرية باكثر مما تملك من الفضائل " انه لا يحلق بها في سماء المثل الافلاطونية واحلام القديسين

المستحيلة. انها شريعة واقعية تنزلت لكي تتعامل مع الواقع: تهدم، وتغير، وتبني، بحجارة الارض وطينها، وبمواجهة الانسان نفسه: بلحمه ودمه واعصابه وغرائزه واشواقه وامانيه، بتكوينه النفسي كما كشفته وستكشف جوانب منه احدث نظريات علمي النفس والتشريح.. وهكذا " وفي الوقت نفسه فان الانسان في المنظور الاسلامي ينبغي الا يحرم نفسه من الرزق والمتاع اللذين انعم الله بهما عليه " ويمضي بوازار الى القول " بان الزواج لما كان في اساسه عقدا فانه يمكن ان يفسخ اذا لم يعمل بجميع بنوده. ولا يمكن ان تكون الدوافع تافهة، لان القرآن لاينبي يحض على الوفاء بالعهود وفاءا تاما. فالترخيص بالطلاق اذن واضح جلي ولكنه يجب ان يقصد داخل اطار معين. وهناك من جهة اخرى صيغة لاصلاح ذات البين، والمراة مؤهلة قانونيا حسب بعض الشروط لطلب الطلاق.. ولا ريب ان الطلاق جرح اجتماعي، والعقيدة الاسلامية تنظر اليه هذه النظرة، والترخيص به بشكله المنظم قد يبدو مع ذلك افضل بالنسبة الى بعضهم من تحريمه المطلق الذي يجري على الزوجين قديمي العهد التضحية بحياتهما في تعزب قسري، ويمهد السبيل امام الزنا والمعاشرة غير الشرعية "(١٤٩).

ويقف سيديو عند (الشروط) التي تضع بازاء حلية الطلاق جملة من الفرامل والضوابط فلاتجعل منه ممارسة سائبة. هذا التوازن بين المرونة والصرامة، بين الحرية والضرورة، بين الاختيار والالزام، وبين سائر الثنائيات والتقابلات التي لايحصيها عد في الحياة البشرية، هو واحد من اهم ميزات الاسلام وتفرده على سائر النظم والقوانين والمذاهب التي تجنح صوب هذا الحد او ذاك.. فها هنا بصدد الطلاق، يلحظ سيديو كيف ان الاسلام الذي احله " جعله في الوقت نفسه تابعا لبعض الشروط فيمكن الرجوع عنه عند الطيش والتهور. والطلاق لكي يكون باتا، يجب ان يكرر ثلاث مرات متتابعات.. والمراة اذا ما طلقت لا تحل لزوجها الاول الا بعد ان تنكح زوجا آخر فيطلقها هذا الزوج، وهذا

الحكم على جانب عظيم من الحكمة لما يؤدي اليه من تقليل عند الطلاق، ولا يحق للمرأة ان تطلي الطلاق، الا عند سوء المعاملة "[150].

وتنطلق فاكليري من حقيقة " ان المجتمع الغربي مادام قد ارتضى الطلاق ايضا - واعترف به في الواقع كضرورة من ضرورات الحياة، وخلع عليه في كل مكان تقريبا صفة شرعية كاملة " فانه لامبرر للدفاع عن اعتراف الاسلام به. ولكنها ماتلبث ان تجد نفسها مسوقة باغراء التصميم الاسلامي للطلاق الى الحديث عنه مقارنا بما كان الجاهليون يعملونه.. والى الشروط والضوابط التي حدت من حريته المطلقة على الحركة.. والى اطار عدم التحبيذ العام الذي يحيطه به هذا الدين: " فاننا بدراستنا له، وبمقارنتنا بين عادات العرب في الجاهلية وبين الشريعة الاسلامية، لفوز بفرصة يظهر فيها ان القانون الاسلامي قد دشن في هذا المجال ايضا اصلاحا اجتماعيا. فقبل عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) كان العرف بين العرب قد جعل الطلاق عملا بالغ السهولة.. اما القانون الالهي فقد سن بعض القواعد التي لاتجيز ابطال الطلاق فحسب، بل التي توصي به في بعض الاحوال.. وليس للمرأة حق المطالبة بالطلاق، ولكنها قد تلتمس فسخ زواجها باللجوء الى القاضي، وفي امكانها ان تفوز بذلك اذا كان لديها سبب وجيه يبرره. والغرض من هذا التقييد لحق المرأة في المبادرة هو وضع حد لممارسة الطلاق، لان الرجال يعتبرون اقل استهدافا لاتخاذ القرارات تحت تأثير اللحظة الراهنة، من النساء. وكذلك جعل تدخل القاضي ضمانا لحصول المرأة على جميع حقوقها المالية وغير المالية الناشئة عن انجاز فسخ الزواج. وهذه القاعدة، والقاعدة الاخرى التي تنصب على انه في حالة نشوب خلاف داخل الاسرة يتعين اللجوء الى بعض الموفقين ابتغاءا للوصول الى تفاهم، تنهضان دليلا كافيا على ان الاسلام يعتبر الطلاق عملا جديرا باللوم والتعنيف.. "[151].

ومن اجل الا نتصور، بنتيجة القيود التي رسمها الاسلام على الطلاق، والاطار العام لعدم التحبيذ الذي وضعه فيه، ان الطلاق - بالتالي - أمر

مرفوض، وان الاقدام عليه يقترب بالمرء من حافة الخطأ او الجريمة، فيما يجعل المنظور يقارب الرؤية النصرانية للموضوع " من اجل الا نقع في هذه المظنة، فان الباحث المجري المسلم ليوبولد فايس (محمد أسد) يذكرنا " بان الزواج في الاسلام لما كان عقدا مدنيا فحسب، فان في مكنة الشريكين في الزواج ان يلجا دائما الى الطلاق خصوصا وان الوصمة التي تلصق بالطلاق، سواء بشدة اقل او اكثر، في المجتمعات الاخرى، معدومة في المجتمع الاسلامي "(١٥٢). وقايس كتب استنتاجه هذا في الربع الاول من هذا القرن. والآن فان الغرب، بجناحيه الرأسمالي والشيوعي، يشهد موجة هائلة من الاقدام على الطلاق، على مستويي التشريع والتنفيذ، فيما يتجاوز بارقامه ومعدلاته مايحدث في الشرق الاسلامي نفسه والذي سبق وان اباحت شريعته الطلاق، ذلك " ان الزواج عند المسلمين " كما يقول لايتنر " يجل عما رماهم به كتاب النصارى. والقول بانه لا يوجد حد للزواج والطلاق عند المسلمين، فغير صحيح. والطلاق عندهم ليس بالامر الهين، فعدا عن وجود الحكمين فعلى الرجل ان يدفع صداق (المرأة) المسمى عند اجراء العقد، وهذا غالبا يكوت فوق مايقدر زوجها على ايفائه بسهولة، فمركز المرأة بالاسلام قوي مؤمن من الطلاق. ان النصارى والبوذيين يرون ان الزواج امرا روحيا ومع ذلك نرى عقدة النكاح محترمة عند المسلمين اكثر مما هي محترمة في البلاد المسيحية.. ويسوؤني ان اذكر ما ليس لي مناص من ذكره وهو انني سكنت بين المسلمين اربعا وخمسين عاما ابتداءها سنة ١٨٤٨ م فمع وجود التساهل في امر الطلاق عندهم وعسره عند النصارى، فقد وقع حوادث طلاق عند النصارى اكثر مما وقع عند المسلمين بكثير.. "(١٥٣).

اما دينيه فانه يوجه نقده المر الى الكنيسة التي اساءت - كذلك - في مسألة الطلاق، وذلك لمخالفتها ايضا لقوانين الطبيعة " وهو يقصد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويتساءل " هل اشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا لبعضهما صبرا، وقد خاب ظنهما في الزواج ولم يدركا السعادة التي

طلباها من وراء ذلك هل اشد من الحكم عليهما بان يخلدا يقضيان بقية ايامهما في عذاب ونكد وشقاء؟ كذلك اذا كان احدهما عاقرا او كان غير كفء لزميله هل يحرم الآخر من ان يبني لنفسه بآخر وان يقيم له عائلة من جديد؟ "(١٥٤). ولم ينسى دينيه حقيقة ان اباحة الطلاق لاتعني بالضرورة تشجيعه والحث عليه، فها نحن اولاء " في صدد الطلاق لاتفوتنا حكمة التشريع الاسلامي وهو يرى السوء في فوضى الطلاق، فيسمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (ابغض الحلال الى الله الطلاق) (١٥٥)... "(١٥٦).

ويمنح سوسه قارئه القناعة التامة بمصداقية التحليل الاسلامي للطلاق بما شهدته المجتمعات النصرانية على ارض الواقع " فلقد حرمت المسيحية الطلاق ولكن في الوقت نفسه نجد انظمة البلاد المسيحية وقوانينها الرسمية تنص على اباحته. ان المسيحيين انفسهم قد ضربوا بتعاليم ديانتهم عرض الحائط، ووضعوا القوانين التي تنقضها من الاساس، وما كان ذلك كرها لديانتهم ولكن رغبة في وضع ماتتطلبه نفسية المجتمع البشري من نظام يضمن " الاطمئنان في علاقات الجنسين، ويكفل السعادة البشرية. ولو صحا المسيحيون من غفلتهم وتأملوا في الامر لاتضح لهم بانِ الاسلام قد سبقهم في هذا المضمار من قبل ثلاثة عشر قرنا.. "(١٥٧).

ويمضي سوسه الى القول: بان الله سبحانه سن سنة الطلاق لعباده، وفقا للنواميس الاجتماعية التني فطر الله عليها الانسان، ووضع النظام الذي اراده في هذا الشأن، وذلك لتوضيح علاقة الرجل بالمراة وتأمين الوئام بين الجنسين، مع ضمان العدل والانضباط الاجتماعي، وهذا مافطن اليه المسيحيون بعد مضي قرون عديدة وهم خاضعون لنير استعباد الكنيسة حتى كان لهم في الماضي القريب ان يتملصوا من تعاليم ديانتهم في هذا الشأن فساروا في سبيل الشريعة الاسلامية راوين غليلهم من تعاليمها الالهية ولكن بدون ان يعترفوا باوهام ديانتهم وصدق الديانة الاسلامية "(١٥٨).

ولا يفوت سوسه ان يلحظ، وقد عاش في ديار الغرب سنوات عديدة، " كيف يصبح الطلاق عند المسلمين الى جانب القلة، ويكثر عند الغربيين الذين كانوا ينكرونه اشد الانكار، وما فتيء يزداد مع الزمن انتشارا مطردا، فانه يحصل في الولايات المتحدة الامريكية كل سنة ما ينيف على المائتي الف طلاق، وفي اوربا يبت في عشرات الالوف من قضايا الطلاق وعلى الاخص في فرنسا. ولايغيب عن الذهن ان الاسلام مع اباحته الطلاق للضرورة، فانه يعد ابعض الحلال عند الله، كما انه ورد في القرآن الكريم ما يحتم الرفق بالمرأة، ويفرض المحافظة على حقوقها ويقصي الرجل عن الاقدام على الطلاق ما امكن "(١٥٩).

وهكذا بينما نجد ان الاسلام يحل الطلاق وينظمه في الوقت نفسه بحيث انه لم يعد يشكل منذ البداية اية معضلة في الحياة الاجتماعية لانه يتضمن في تركيبه المرسوم بدقة، كافة الصيغ التوجيهية والتشريعية التي تضعه تماما موضعه الحق في خارطة هذه الحياة.. نجد بالمقابل كيف حرمته الجماعات الاخرى، وادانته باعتباره عملا خاطئا، ثم لما ارغمتها الضرورات على الاخذ به، انطلقت لكي تمارسه بالعنف الذي يرفض بالاخذ باي ضابط انساني او قيد ديني او اخلاقي وبالسرعة التي تجعله يضرب ارقاما قياسية، ومع ضرب الارقام، تدمير للحياة الاسرية هناك، ولأمنها واستقرارها.. انه التحول من النقيض الى النقيض الذي اغنى الاسلام اهله من الوقوع في مأساته المحزنة، بذلك البرنامج الذي يفرض نفسه اليوم ويكسب اعجاز الخصوم والاصدقاء!!

فماذا يقول رجل من نصارى الشرق، كانت كتاباته عن الاسلام ورسوله (صلى الله عليه وسلم) مصداقا للآية الكريمة (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى..)(١٦٠): " انه يعسر جدا تصور زواج بغير طلاق بصورة من الصور " هكذا يبدأ نظمي لوقا تحليله للموضوع " فالزواج نظام جعل لاسعاد الناس وصلاح امور حياتهم. ولم يجعل الناس ليكونوا عبيدا او ضحايا للزواج، فالزواج الذي تستقيم به حياة الانسان هو الذي يستحق الابقاء عليه، اما

الزواج الذي تفسد به حياة الانسان، ويتطرق اليها العطب والعفن وصديد الحقد والسخط، فهذا ينبغي ان يبتر قبل ان يقضي على فرصة الحياة الفذة المقدسة، كما يبتر العضو الفاسد من الجسم حرصا على بقاء الجسم كله مهما كان ذلك العضو المبتور عزيزا. (لا ضرر ولا ضرار) [١٦١] قاعدة ليس احكم منها في جميع شؤون البشر ومعاملاتهم، وهذه هي القاعدة الاساسية العامة. ان فرصة الانسان في الحياة واحدة ففيم نجعلها عذابا مقيما لزوجين تبين ان الوفاق بينهما مستحيل، وان حياتهما معا اهدار لحياتيهما لامحالة. ان التطبيق العملي اثبت ذلك، وصارت امم الغرب المسيحية تجيز الطلاق في قانونها "[١٦٢].

وهو تحليل مقنع لأشد المعاندين لضرورات الحياة البشرية، فكيف ببداهاتها؟ لكن لوقا لا يقف عند هذا الحد بل انه يمضي لكي يعزز تحليله بالمزيد من المعطيات المنطقية، مؤكدا على التعادلية الاسلامية التي تجعل الطلاق، او اية ممارسة اخرى، في محلها تماما بين السلب والايجاب، بين الضرورة والتحرر، وبين التحديد والاطلاق.. " ان رخصة الطلاق دواء مر المذاق. او جراحة موجعة. ولكن من ذا الذي يلغي التداوي كراهة للمرارة، او يحرم الجراحات كراهة للآلام والمصائب؟ لابد من الدواء ومن الجراحة.. لابد من وسيلة لتدارك الاخطار واعطاء الفرصة لبني آدم وبنات حواء كي يبدأوا من جديد بناء سعادتهم في الدنيا باقامة اركان اسرات سليمة الصرح يعمرها الامن والمودة والرحمة. والاسلام يضع رخصة الطلاق في موضوع الدواء الكريه المذاق او مبضع الجراحة ولا زيادة، ولايكون اللجوء اليه الا بعد استنفاذ الحيلة في اصلاح ذات البين.. وليست المرأة في جميع الاحوال تحت رحمة الزوج امساكا او تسريحا، اذ يجوز ان تكون عصمة المرأة بيدها ان شرطت ذلك عند عقد الزواج، فيكون زمام الحياة الزوجية في عنقها، وان شاءت ابقت وان شاءت فصمت، وهذا هو الحد الذي يقول العقل انه لا يجوز على حقوق السعادة الفردية ولايجعل الزواج احيانا (عاهة مستديمة) بغير مبررعقلي، وبغير مصلحة لكائن من كان "[١٦٣].

ويؤشر لوقا على المزيد من ضمانات الاستمرار وضوابط الطلاق التي تمنعه من التسيب والانفلات فلحكمة واضحة جعل الطلاق على ثلاث مراحل، حتى يكون هناك موضع للمراجعة قبل ان تقع الواقعة، فان سلطان الغضب غشوم. اما السكران والمحرج والمكره فلا يقع منه طلاق "(١٦٤).

ولا يفوته - اخيرا - ان يلحظ جانبا من جوانب الهندسة الاسلامية للموضوع ربما غفل عنه بعض المسلمين انفسهم.. ان " القول بان يكون القاضي هو الذي يصدر الطلاق لاسباب محددة، مثل الزنا، قول فيه وجه غضاضة. لان التحاكم في دور القضاء فيه ابتذال للاعراض حتى تغدو مضغة في الافواه، وعرضت للجاجة والملاحاة. ان صون الاسرار واسباب الفراق هنا أليق، وفيه من النخوة والبصيرة الشيء الكثير، حتى لاتوصم المرأة بما يعيبها ويعوق زواجها مرة اخرى. وحتى لايوصم بناتها او ابناؤها بما تردد قاعات المحاكم من مثالبها، وما قد يصدر حكم القاضي تأسيسا عليه "(١٦٥).

****

قد يكون من المناسب في ختام هذا المقطع الاشارة الى التقرير الذي اعلنته وكالة (قدس- برس) في لندن ونشرته (قضايا دولية) في عددها (٢٥٩ ديسمبر ١٩٩٤ م) والذي يؤكد على ان واقعة الطلاق اخذت تغزو قلعة الرفض نفسها في الحياة الغربية: الكنيسة.

فلقد ذكرت دراسة حديثة نشرت مؤخرا ان الخيانة الزوجية والقلق المالي والشذوذ الجنسي وساعات العمل الطويلة، هي المسببات الرئيسية للزيادة الحادة في معدلات الطلاق بين القساوسة البريطانيين. واعرب مسؤولو كنيسة انكلترا عن قلقهم من انتشار هذه الظاهرة خاصة وانها قبل عقد من الزمان كانت نادرة ان لم تكن غير موجودة (لاحظ ان قلق مسؤولي الكنيسة لاصلةله بتزايد حالات الشذوذ الجنسي وارتفاع معدلات الخيانة الزوجية بين القساوسة، وانما هو

مرتبط - فقط - بتزايد حالات الطلاق، لأن الذي يفزعهم - على ما يبدو - ليس مخالفة قوانين الفطرة والميل عنها، ولاحتى اوامر الله ورسله (عليهم الصلاة والسلام) وانما تعاليم الكنيسة فحسب بغض النظر عن مصدر هذه التعاليم ومصداقيته الدينية).

وتمضي الدراسة المذكورة الى القول بان معدلات الطلاق قد ارتفعت لدى رجال الدين في مطلع التسعينيات لتصل الى خمسين حالة في السنة. فيما تضاعف العدد في احدى الاسقفيات ثلاث مرات خلال الاربع سنوات الاخيرة. وقالت مستشارة الزواج ماري كيرك التي ساهمت في اعداد الدراسة التي حملت عنوان (الزواج المقدس): ان هناك حاجة ماسة للمساعدة واضافت: عليهم ضغط كبير، ورجال الدين وزوجاتهم يعيشون بين الناس وينظر اليهم على انهم نماذج للزوجية، ليس هناك من يتوقع انهم يعانون من مشاكل.

وتقول سيدة من منطقة ساسيكس، بعد ان اكتشفت خيانة زوجها القسيس: ان الكنيسة معنية فقط بالتكتم على فضائح رجالها الجنسية. وتضيف ان القساوسة لم يتدربوا على حماية انفسهم من الوقوع في هوى نساء فاتنات. غير ان موضوع الخيانة الزوجية ليس مقصورا على اقامة القسيس علاقات غرامية مع النساء المقربات من الكنيسة وانما مع العاملين الرجال وقساوسة آخرين ايضا. ففي الشهر الماضي استقال القسيس المتزوج ايان اوريز من كنيسة سانت جورج في لندن بعد ان انكشف امر علاقته مع زميل له. وقد اعترف بذلك في كتاب استقالته. ويطالب بعض القساوسة المطلقين السلطات الكنسية بالسماح لهم بالزواج مرة اخرى. ويقول القسيس روي ويليلمز ان على السلطات الدينية ان تهتم بمشكلات الزواج التي تواجه رجال الكنيسة وتعي متطلباتنها.

ومرة ثالثة ورابعة وعاشرة.. ماهي الاكثر دواما واستجابة لمطالب الانسان: شريعة الله ام تعاليم اصحاب الميول والظنون والاهواء من المشرعين بغير علم؟

(٧)

شهادة التأريخ

ونحن نمضي الى ختام بحثنا هذا لابأس ان نؤشر على عدد من الشهادات ذات البعد التأريخي، فمما لاريب فيه ان التاريخ، باعتباره تحققا مشهودا للمباديء والنظريات في دائرة الواقع، يمكن ان يمنح قناعات اضافية حول الموضوع.. انه محك الاختبار.

ترجع بنا سيكريد هونكه الى البدايات.. لحظة وضع المرأة في مكان " اعلى وارفع مما احتلته في الجاهلية " بل انها تبدأ بالمرأة الاولى في تأريخ الاسلام: خديجة (رضي الله عنها) زوج النبي صلى الله عليه وسلم الاولى التي عاش معها اربعة وعشرين عاما، والتي " اجاز لها ان تستزيد من العلم والمعرفة كالرجل تماما ".. بعدها، وعلى مدى القرون التالية التي تألقت عبرها حضارة الاسلام " سار الركب، وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون والشرع، ويلقين المحاضرات في المساجد، ويفسرن احكام الدين. فكانت السيدة تنهي دراستها عل يد كبار العلماء، ثم تنال منهم تصريحا لتدرس هي بنفسها ما تعلمته، فتصبح الاستاذة الشيخة. كما لمعت من بينهن اديبات وشاعرات، والناس لاترى في ذلك غضاضة او خروجا على التقاليد "[١٦٦] كان كثرة من اشتهر من النساء بمعارفهن العلمية والادبية دليلا - كما يقول لوبون - " على اهمية النساء ايام نضارة حضارة العرب، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العباسي في المشرق والعصر الاموي في اسبانيا "[١٦٧].

ويقول ديورانت " كانت البنات يذهبن الى المدرسة سواء بسواء. ونبغ عدد من النساء في الادب والفن "[١٦٨] ولم تكن " النساء متأخرات عن الرجال في

ميدان العلوم والمعارف " كما تقول كوبولد " فقد نشأ منهن عالمات في الفلسفة والتأريخ والادب والشعر وكل الوان الحياة "[١٦٩] ونحن لانزال نتذكر عبارات جاك ريسلر في هذا المجال: " يقوم تعليم البنات على تلقينهن تربية دينية قوية، وعلى تعويدهن الصلاة، وجعلهن في وقت مبكر صالحات للاعمال المنزلية وبعد سنوات ايضا يعلمن قرض الشعر والفنون "[١٧٠] لقد كان تعليم المرأة، **كما يؤكد دينيه " يساير كل المسايرة جميع تعاليم الدين، وقد كان في عصر ازدهار الاسلام يفاض فيضا على المسلمات، وكانت ثقافتهن حينذاك ارفع من ثقافة الاوربيات دون جدال "[١٧١].**

ويجري كوستاف لوبون هو الآخر مقارنة بين المراة المسلمة وزميلتها الغربية فيجد " ان نساء الشرق اعظم تعليما من نساء اوربا " وهو يحذر من القول " بان طرق حياة النساء في الشرق مانعة من تعليمهن في كل وقت " ذلك " ان عدد النساء اللائي اشتهرن ايام ازدهار حضارة العرب بعلومهن وآدابهن كان كثيراً الى الغاية، ولم يستند الكتاب الذين تحدثوا عن جهل المراة الشرقية الا الى حال الاماء اللاتي يجلبن من اقاصي الاقطار.. وما هؤلاء الكتاب الا كمن يستنبط رقي السيدة الباريسية الفاضلة من حال خادمة غرفتها "[١٧٢]. ثم يخلص الى القول بان " النساء المسلمات قد اخرجن في الدهر الغابر من المشهورات العالمات بقدر ما تخرج مدارس الاناث في الغرب اليوم "[١٧٣].

لم يقتصر الامر على دائرة الثقافة وحدها، لكنه انداح واتسع لكي يلف الحياة على امتدادها: " ان نشاطات المراة المسلمة قد تمتد احيانا خارج المنزل. فبعض المسلمات كن يقمن بمسؤوليات عامة، في الحرب والتجارة، ولكن ذلك كله كان في اطار الخلق الكريم"[١٧٤]. وماكلوسكي انما تلخص بهذا الكلمات القلائل، ليس وضع المراة المسلمة فحسب، انما معادلة الحياة الاسلامية نفسها: العمل والقيم.. الحرية والالتزام.. النشاط العام والاخلاق التي تحميه من التبذل

والامتهان، وتجعله مشعا نظيفا يليق بهذا الكائن الفريد الذي اراد له الاسلام ان يظل مشعا.. نظيفا..

ويذكر بوازار " بالاحترام والحرية " اللذين كانت المراة تتمتع بهما " في ظل الخلافة الاموية باسبانيا. فقد كانت يومئذ تسارك مشاركة تامة في الحياة الاجتماعية والثقافية، وكان الرجل يتودد لـ (السيدة) للفوز بالحظوة لديها.. ان الشعراء المسلمين هم الذين علموا مسيحيي اوربا - عبر اسبانيا - احترام المرأة "[١٧٥].

بل ان هونكه تلحظ كيف ان هذا الاحترام عبر عن نفسه حتى في دائرة الجماليات الصرفة التي يتصور البعض جهلا انها وهندسة الاسلام لمراكز المراة في المجتمع، على طرفي نقيض: " ان احترام العرب لعالم النساء واهتمامهم به ليظهران بوضوح عندما نرة انهم خصوه بنوع من العطور وبانواع الزينة والتي وان لم تكن مجهولة قبلهم، الا انها فاحت بثروة الشرق العطرية الزكية، وبالاساليب الفائقة في تحضيرها. كذلك فان العثنون الذي كان يزين الوجوه الحليقة، منذ حملات الصليبيين، على طريقة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) قد اصبح نموذجا يقلده الرجال "[١٧٦].

والى عهد ليس ببعيد نجد المراة المسلمة تمارس التقاليد التي انحدرت اليها من عصور التألق والازدهار.. وايفلين كوبولد، الباحثة الانكليزية المسلمة، تنقل لنا ماكتبته اللادي ماري مونتكاد زوجة السفير الانكليزي في تركيا (العثمانية) الى شقيقها حيث تقول " يزعمون ان المراة المسلمة في استعباد وحجر معيب وهو ما أود تكذيبه فان مؤلفي الروايات في اوربا لايحاولون الحقيقة ولايسعون للبحث عنها ولو لا انني كنت في تركيا وانني اجتمعت الى النساء المسلمات، ماكان الى ذلك سبيل، واني استمع الى اخبارهم وحوادثهم وطرق معيشتهم من سبل شتى لذهبت اصدق مايكتبه هؤء الكتاب، ولكن

مارأيته يكذب كل التكذيب اخبارهم، ولا ابالغ اذا قلت لك ان المراة المسلمة، وكما رأيتها في الاستانة، اكثر حرية من زميلاتها في اوربا ولعلها المراة الوحيدة التي لاتعنى بغير حياتها البيتية، ثم انهن يعشن في مقصورات جميلات ويستقبلن من يردن من الناس.. "[177].

وتعايش كوبولد المراة المسلمة في مكة والمدينة فترى ان من واجبها، كما تقول " تكذيب الشوائع المنتشرة في اوربا بشأن (الحرم) ذلك بانني علمت وانا في المدينة وفي مكة، بان جل الناس فيهما، ان لم اقل كلهم، ليس لهم غير زوجة واحدة، وان هذه الزوجة تقوم بواجباتها المنزلية في صباح النهار وأطرافه، حتى اذا انتهت من اعمالها استقبلت صويحباتها وخرجت معهن للتنزه والرياضة وهي مسرورة كل السرور بحياتها وبيتها "[178].

وبايجاز شديد، " فان الحرية الجديدة التي اعطاها الاسلام للمرأة، خلقتها - كما تقول كوبولد - خلقا جديدا، فنبغ منهن الشاعرات والكاتبات والمفكرات والخطيبات والثائرات، مما لايذكر له التاريخ مثيلا وهذه الحرية التي اعطاها الاسلام للمرأة منذ مئات السنوات لم تتفضل بها دولة الانكليز على نسائها الا في الاعوام المتأخرة "[179]. وهي تجري مقارنة اخرى: " فكما كان للنساء الاوربيات صالونات منذ زمن قصير فقط فقد كان لنساء الاسلام صالونات ادبية وسياسية واجتماعية منذ مئات السنين، وهذه الظاهرة فريدة في نوعها وليس هناك من يماثل الاسلام فيها.. وهذه الصالونات النسائية لايجب تجاهل خطورتها وما كان لها من اثر في تغذية الحضارة الاسلامية "[180].

وهكذا فان ما حدث في عصور الظلمة التي سبقت الاستعمار الغربي لعالم الاسلام، وزامنته، ونزلت بالمراة درجات عن المكانة التي كانت تتربع فوقها.. ضيقت عليها الخناق في مساحة محدودة، بعد ان كانت ساحتها الحياة على امتدادها.. امور لاعلاقة لها بالاسلام نفسه، كما هو بدهي معروف، انما هي

مجموعة ظروف الجهل والتخبط والفوضى التي كان الاستعمار نفسه واحدا من اخطر اسبابها، ما جعل الصورة تتغير هذا التغير الملحوظ.. " ان العادات والتقاليد " المتشكلة في مثل تلك الظروف وليست " الشريعة الاسلامية " كما يقول لوبولد فايس " هي المسؤولة عن العزلة التي فرضت على المرأة كل هذه المدة الطويلة في الكثير من البلدان الاسلامية ذلك اننا لا نستطيع ان نجد، لا في القرآن ولا في سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) ايما امر لمزاولة هذه العادة التي اخذها المسلمون فيما بعد عن الروم "(١٨١).

وهو الامر الذي يلحظه جيدا رجل القانون الفرنسي مارسيل بوازار "فليس في التعاليم القرآنية ما يسوغ وضع المرأة الراهن في العالم الاسلامي والجهل وحده، جهل المسلمة حقوقها بصورة خاصة، هو الذي يسوغه "(١٨٢).

لقد قال النبي (الجنة تحت اقدام الامهات) (١٨٣)، وقال كذلك (خيركم من احسن الى امراته) (١٨٤)، ويمكن ان تصدر مثل هذه الاحكام عن مجتمع لا يحترم المراة بوصفها امراة ".. ومرة اخرى فان " دونيتها النسبية الراهنة بازاء الرجل " انما هي كما يؤكد بوازار " النتيجة المباشرة للظروف الاجتماعية والاقتصادية والاجمالية للمجتمع الاسلامي... " (١٨٥).

ولقد كان هناك - كما هو الحال دائما - انتهازيو العقائد والافكار من الغالبين والمغلوبين على السواء، من سولت لهم انفسهم ان يربطوا الظاهرة (الزمنية) بالاسلام نفسه واهدافهم واضحة بينة، رغم خبثها وتسترها.. ان يساعدوا، من جهتهم، وضمن سلسلة مترابطة من حلقات النشاط المضاد ، على فك الارتباط بين هذه الامة وبين دينها، حتى اذا ما ضاعت قيادتها العقيدية، وتفككت اوصالها، قطروها الى شاحنة الغرب لكي تمضي - كما اتضح اكثر فاكثر - لا الى ما تريده المراة المسلمة ولا الرجل المسلم، وانما الى محطات واهداف ما كان احد يرجو الذهاب -في يوم من الايام - اليها، لانها ما تكشفت في نهاية الامر سوى عن التفكك والدمار والتعاسة والضياع..

ما كانت -ابدا - كسبا، ولكنه الخسران المبين: (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما) [١٨٦].

الهوامش

(١) ترجمة عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت - ١٩٨٠ م.

(٢) لن يحتاج اي باحث مسلم حتى لمجرد الاشارة الى ان معطيات القرآن الكريم، ذات الصدق المطلق ليست بحاجة الى (تأكيد) من اي مصدر بشري ذي معرفة نسبية ومنقوصة، لكن بالنسبة لضعاف الايمان، او الغربيين انفسهم، او غير المسلمين عموما، فان (تأكيدا) كهذا يحمل قيمته في منح القناعة بمصداقية هذا الدين، وصلاحه لكل زمان ومكان.

(٣) اشارة الى الحديث النبوي الشريف (النساء شقائق الرجال) الذي رواه الامام احمد في مسنده، وابو داود والترمذي. وانظر تاكيد الباحثة الالمانية المسلمة ماكلوسكي على المعنى نفسه في كتاب: عرفات كامل العشي: (رجال ونساء اسلموا) الجزء التاسع ص ٦٢ (دار القلم، الكويت - ١٩٧٣ - ١٩٨٣)

(٤) انسانية الاسلام ص ١١٣.

(٥) أنظر: سورة التحريم، الآيتين ١١ - ١٢.

(٦) انسانية الاسلام ص ١١٣.

(٧) نفسه ص ١١٣ - ١١٤.

(٨) محمد: الرسالة والرسول ص ١٠٠ - ١٠١ (الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، القاهرة - ١٩٥٩).

(٩) رواه القضاعي والخطيب في التاريخ.

(١٠) لم يرد بهذا اللفظ وانما هو (خياركم خياركم لنسائه) رواه الترمذي وابن ماجة.

(١١) إنسانية الاسلام ص ١١٥.

(١٢) الاتجاهات الحديثة في الاسلام ص ١٢٣ (تعريب جماعة من الاساتذة الجامعيين، المكتب التجاري، بيروت - ١٩٦١)

(١٣) انسانية الاسلام ص ١٠٩.

(١٤) أنظر: الطريق الى مكة ص ٣٠٦ (ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٥٦)

(١٥) العقيدة الاسلامية ص ١٤٣ (تعريب محمد ضياء، مطبعة هندية - القاهرة - ١٨٩٧).

(١٦) أنظر: البحث عن الله ص ٨١ - ٨٢ (ترجمة عمر ابو النصر، المكتبة الاهلية بيروت - ١٩٣٤).

(١٧) ص ٩٥ - ٩٦.

(١٨) سورة الذاريات، آية ٤٩.

(١٩) وعود الاسلام ص ٧٨ (ترجمة ذوقان قرقوط، الوطن العربي، القاهرة - بيروت ١٩٨٤).

(٢٠) الاسلام والعرب ص ٢٠٣ (الطبعة الثانية، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٧٧)

(٢١) وعود الاسلام ص ٧٨.

(٢٢) نفسه ص ٨٠.

(٢٣) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٦٨ (في الاصل: شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، المكتب التجاري، بيروت - ١٩٦٤)

(٢٤) نفسه ص ٥٣.

(٢٥) نفسه ص ٥٣.

(٢٦) حضارة العرب ص ٤٠٣ (الطبعة الثالثة، ترجمة عادل زعيتر، دار احياء الكتب العربية، القاهرة - ١٩٥٦)

(٢٧) نفسه ص ٤٠٥.

(٢٨) انسانية الاسلام ص ١٠٨.

(٢٩) نفسه ص ١٠٩ - ١١٠.

(٣٠) نفسه.

(٣١) نفسه ص١١٥.

(٣٢) نفسه.

(٣٣) نفسه ص ١٤٠.

(٣٤) حياة محمد ص ٣٢٩ - ٣٣١.

(٣٥) الاسلام: خواطر وسوانح ص ٥٨ (ترجمة احمد فتحي زغلول باشا، مطبعة الشعب، القاهرة - ١٩١١).

(٣٦) الحضارة العربية ص ٥٢ (ترجمة غنيم عبدون، مراجعة احمد فؤاد الاهواني، الدار المصرية، القاهرة - بدون تاريخ).

(٣٧) تاريخ العرب العام ص ١١٠ (ترجمة عادل زعيتر، دار احياء الكتب العربية، القاهرة - ١٩٤٨).

(٣٨) حضارة العرب ص ٤٠١ - ٤١٥.

(٣٩) قصة الحضارة، جزء ١٣ ص؟ (الطبعة الثانية، ترجمة محمد بدران وآخرين، لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة - ١٩٤٦ - ١٩٦٧).

(٤٠) الاتجاهات الحديثة في الاسلام ص ١٢٣.

(٤١) محمد في المدينة ص ٤٤٣ (تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت - بدون تاريخ).

(٤٢) نفسه ص ٤٤٧.

(٤٣) دفاع عن الاسلام ص ١٠٦ (الطبعة الثالثة، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٧٦)

(٤٤) محمد: الرسالة والرسول ص ٩٥ - ٩٦.

(٤٥) نفسه ص ٩٦.

(٤٦) محمد رسول الله ص ٣١١ (الطبعة الثالثة، بالاشتراك مع سليمان ابراهيم الجزائري، ترجمة عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة - ١٩٥٩).

(٤٧) الطريق الى مكة ص ٣٠٦.

(٤٨) سورة البقرة آية ٢٢٨.

(٤٩) البحث عن الله ص ٨١ - ٨٢.

(٥٠) نفسه ص٨٤.

(٥١) نفسه ص ٨٦.

(٥٢) رجال ونساء اسلموا ٦٢/٩.

(٥٣) رواه ابن ماجة وابن عبد البر.

(٥٤) رجال ونساء اسلموا ٦٢/٩ - ٦٣.

(٥٥) نفسه ٩ /٦٣.

(٥٦) نفسه ٢٨/٨.

(٥٧) في طريقي الى الاسلام ١٨٧/١ (الجزء الاول، المطبعة السلفية، القاهرة - ١٩٣٦، الجزء الثاني، مطبعة الغرى، النجف - ١٩٣٨).

(٥٨) نفسه ١٤٢/٢.

(٥٩) وعود الاسلام ص ٧٨.

(٦٠) نفسه ص ٧٨ - ٧٩.

(٦١) دفاع عن الاسلام ص ١٠٦.

(٦٢) قصة الحضارة ١٤٠/١٣.

(٦٣) الاسلام والعرب ص ٢٠٣.

(٦٤) دين الاسلام ص١٥ (الطبعة الثانية، ترجمة عبد الوهاب التنير، المكتبة السلفية، دمشق - ١٣٤٢ هـ).

(٦٥) البحث عن الله ص ٨٤.

(٦٦) رجال ونساء اسلموا ٦٢/٩ - ٦٣.

(٦٧) نفسه ٢٨/٨.

(٦٨) حضارة العرب ص ٣٨٩.

(٦٩) نفسه ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٧٠) نفسه ص ٤١٠ - ٤١١.

(٧١) نفسه ص ٤١٥.

(٧٢) انسانية الاسلام: خواطر وسوانح ص ١١١ - ١١٢.

(٧٣) الاسلام: خواطر وسوانح ص ٥٦.

(٧٤) نفسه ص ٥٨ - ٥٩.

(٧٥) اشعة خاصة بنور الاسلام ص ٣٢ - ٣٣ (ترجمة راشد رستم، سلسلة الثقافة الاسلامية رقم ١٧، المكتب الفني للنشر، بيروت - ١٩٦٠).

(٧٦) L'Islam. Par Schmitz du mulin. Page ١٦٠.

(٧٧) اشعة خاصة بنور الاسلام ص ٣٣.

(٧٨) قصة الحضارة ١٣ / ١٣٥.

(٧٩) دين الاسلام ص ١٤ - ١٥.

(٨٠) حضارة العرب ص ٤٠٩ وهامشها.

(٨١) نفسه ص ٤٠٩.

(٨٢) في طريقي الى الاسلام ٢ / ١٤٣ - ١٤٤.

(٨٣) الطريق الى مكة ص ٣٠١.

(٨٤) الحضارة العربية ص ٥٢ وهو ما يلحظه كذلك سيديو: تاريخ العرب العام ص١١١ — ١١٢.

(٨٥) رجال ونساء اسلموا ٨/ ٢٥ - ٢٦.

(٨٦) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(٨٧) رجال ونساء اسلموا ٩/ ٦٣ - ٦٤.

(٨٨) دفاع عن الاسلام ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٨٩) رجال ونساء اسلموا ٨/ ٤٦.

(٩٠) نفسه ٨/ ٤٦ - ٤٧.

(٩١) رجال ونساء اسلموا ٨ / ٤٦ - ٤٧.

(٩٢) دفاع عن الاسلام ص ٨٨.

(٩٣) محمد في المدينة ص ٤٤١.

(٩٤) الحضارة العربية ص ٥٢.

(٩٥) نفسه ص ٥٤.

(٩٦) رجال ونساء اسلموا ٩/ ٦٣ -٦٤.

(٩٧) نفسه ٨ / ٢٨.

(٩٨) نفسه ٨ / ٢٩.

(٩٩) الاسلام: خواطر وسوانح ص ٧٥.

(١٠٠) سورة البقرة: آية ٢٢٨.

(١٠١) البحث عن الله ص ٨١ - ٨٢ وانظر اشارة مونتكمري وات حول مسؤولية الرجل إزاء عائلته فيما يخص التصرف بالممتلكات كجزء من التزاماته الاسرية الشاملة: (محمد في المدينة ص٤٤٧).

(١٠٢) رجال ونساء اسلموا ٨ / ٤٦.

(١٠٣) محمد الرسالة والرسول ص ١٠٠ - ١٠١.

(١٠٤) سورة الروم آية ٢١.

(١٠٥) محمد الرسالة والرسول ص ١٠٦ - ١٠٧

(١٠٦) نفسه ص ١١٣ - ١١٥

(١٠٧) نفسه ص ١١٥ - ١١٦.

(١٠٨) الحضارة العربية ص ٥٣.

(١٠٩) رواه القضاعي والخطيب في التاريخ.

(١١٠) تاريخ العرب العام ص ١١٠ - ١١١.

(١١١) نفسه ص ١١٢.

(١١٢) حضارة العرب ص ٤١٣.

(١١٣) نفسه ص ٤٠٩.

(١١٤) حياة محمد ص ٣٣١.

(١١٥) محمد رسول الله ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(١١٦) رجال ونساء اسلموا ٨ / ٢٨.

(١١٧) نفسه ٧ / ١٠٦.

(١١٨) انسانية الاسلام ص ١١١ - ١١٢.

(١١٩) نفسه ص ١١٢.

(١٢٠) حياة محمد ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(١٢١) الاسلام: خواطر وسوانح ص ٥٦.

(١٢٢) نفسه ص ٥٧ - ٥٨.

(١٢٣) اشعة خاصة بنور الاسلام ص ٣١.

(١٢٤) نفسه ص ٣٢ - ٣٣.

(١٢٥) محمد رسول الله ص ٣٣٩.

(١٢٦) الحضارة العربية ص ٥٢.

(١٢٧) محمد في المدينة ص ٤٢٢.

(١٢٨) نفسه ص ٤٢٣.

(١٢٩) نفسه ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

(١٣٠) الطريق الى مكة ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(١٣١) وعود الاسلام ص ٧٩.

(١٣٢) العقيدة الاسلامية ص ٢٢ - ٢٣.

(١٣٣) نفسه ص٣٨ - ٣٩.

(١٣٤) حضارة العرب ص ٣٩٧ - ٣٩٨.

(١٣٥) نفسه ص ٤٠٩ وهوامشها.

(١٣٦) نفسه ص ٤٠٠.

(١٣٧) روح السياسة (عن محمد كرد علي: الاسلام والحضارة العربية، جزء ١ ص ٨٣، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة - ١٩٦٨).

(١٣٨) حضارة العرب ص ٤١٥.

(١٣٩) نفسه ص ٤١٥.

(١٤٠) في طريقي الى الاسلام ١ / ١٨٧.

(١٤١) نفسه ٢/ ١٤٣ - ١٤٤.

(١٤٢) نفسه ٢/ ١٤٤ - ١٤٥.

(١٤٣) محمد: الرسالة والرسول ص ١٠٤ - ١٠٥.

(١٤٤) دفاع عن الاسلام ص ٩٧ - ٩٨.

(١٤٥) نفسه ص ٩٨، وانظر الآيتين ٣ و ١٢٩ من سورة النساء.

(١٤٦) البحث عن الله ص ٤٢.

(١٤٧) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٧١.

(١٤٨) نفسه ص ٤٧٢.

(١٤٩) انسانية الاسلام ص ١١٢ - ١١٣.

(١٥٠) تاريخ العرب العام ص ١١١.

(١٥١) دفاع عن الاسلام ص ١٠١ - ١٠٣.

(١٥٢) الطريق الى مكة ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(١٥٣) دين الاسلام ص ١١.

(١٥٤) اشعة خاصة بنور الاسلام ص ٣٤.

(١٥٥) رواه ابو داود وابن ماجة عن ابن عمر.

(١٥٦) اشعة خاصة بنور الاسلام ص ٣٤.

(١٥٧) في طريقي الى الاسلام ٢/ ٣٠ - ٣١.

(١٥٨) نفسه ٢/ ٣١.

(١٥٩) نفسه ٢/ ٣١ - ٣٢.

(١٦٠) سورة المائدة ، الآية ٨٢.

(١٦١) رواه ابن ماجة في (كتاب الاحكام) والطبراني في (المعجم الكبير) والامام احمد (حديث رقم ٢٨٦٧) (عن ابن عباس رضي الله عنهما).

(١٦٢) محمد: الرسالة والرسول ص ١١٦ - ١١٧.

(١٦٣) نفسه ص ١١٧ - ١١٩.

(١٦٤) نفسه ص ١٢٠.

(١٦٥) نفسه ص ١٢٠.

(١٦٦) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٧٠.

(١٦٧) حضارة العرب ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(١٦٨) قصة الحضارة ١٣ / ٣٠٦.

(١٦٩) البحث عن الله ص ٥١.

(١٧٠) الحضارة العربية ص ٥٤.

(١٧١) محمد رسول الله ص ٣٤١.

(١٧٢) حضارة العرب ص ٤١٢ - ٤١٣.

(١٧٣) روح السياسة (عن محمد كرد علي: الاسلام والحضارة العربية ١ / ٨٣).

(١٧٤) رجال ونساء اسلموا ٩ / ٦٤.

(١٧٥) انسانية الاسلام ص ١٠٨.

(١٧٦) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٥٣.

(١٧٧) البحث عن الله ص ٥٨.

(١٧٨) نفسه ص ٨٦ - ٨٥.

(١٧٩) نفسه ص ٨٤.

(١٨٠) نفسه ص ٨٤ - ٨٥.

(١٨١) الطريق الى مكة ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(١٨٢) انسانية الاسلام ص ١١٤.

(١٨٣) رواه القضاعي والخطيب في التاريخ.

(١٨٤) رواه الترمذي وابن ماجه بلفظ (خياركم خياركم لنسائه).

(١٨٥) انسانية الاسلام ص ١١٥.

(١٨٦) سورة النساء الايتان ٢٦ -٢٧.

الفهرست



موجز بالسيرة العلمية للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل

- دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس في القاهرة عام ١٩٦٨ بدرجة الشرف الأولى.
- عمل في الجامعات العراقية منذ عام ١٩٦٦ ولا يزال مدرساً للتاريخ وفلسفته والحضارة الإسلامية.
- حصل على الأستاذية في مايس ١٩٨٩ .
- شارك في انجاز عدد من المؤلفات والأعمال العلمية للعديد من المؤسسات .
- ساهم في انجاز العديد من المواد العلمية والفكرية لعدد من الموسوعات .
- أشرف على العديد من طلبة الدراسات العليا وشارك في مناقشة العديد من الرسائل والأطاريح
- كتب عن أعماله عدد من رسائل الدبلوم والماجستير والدكتوراه في الجامعات العربية والإسلامية.
- ترجم عدد من مؤلفاته الى العديد من اللغات الاوربية والشرقية .
- شارك في عشرات المؤتمرات والندوات في البلدان العربية والاسلامية والأوربية .
- حاضر في عدد من الجامعات العربية والاسلامية وشارك في اعادة صياغة مناهج التاريخ فيها.
- أنجز عشرات الكتب المنشورة في سياق التاريخ والفكر والادب .
- قيّم كتابه «مدخل الى الحضارة الاسلامية» من قبل مؤسسة ارامكس ميديا في عمّان واحد من أفضل عشرة كتب في العالم لعام ٢٠٠٥ .



مكتبة التفسير

للنشر والاعلان

اربيل - شارع الجامعة - تحت بناية فندق شيرين بالاس

ت: 2518138 - 2221695 - 2230908

موبايل: 07504605122 - 07701387291

www.al-tafseer.com

E-mail:tafseeroffice@yahoo.com

altafseer@hotmail.com